على بصيرة

مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٣- البحث ٨

الاتجاهات التعصبية والتكفير أية عــلاقة ؟

العربي فرحاتي

أستاذ التعليم العالي. قسم علم النفس.

جامعة باتنة. الجزائر

أولا: تحديد المشكلة والتعريف بها.

تعرف الاتجاهات التعصبية في علم النفس الاجتماعي على أنها استجابات أو تمثلات انفعالية متحيزة ومتصلبة معرفيا وسلوكيا، تظهر كمواقف إيجابية أو سلبية (ضد أو مع) تجاه الموضوعات (الأشياء، أو الأشخاص، أو الأفكار)، قد تكون ناتجة عن خبرة سابقة، أو عن غير خبرة.

وتتجلى كما لو أنها نظام إدراكي معرفي ثابت نسبياً، تكون لدى الفرد أو الجماعة كاستعداد ومشاعر وميول وتفضيلات قيمية، عبر أساليب نمطية من التربية المقصودة والتنشئة الاجتماعية وغيرها. تتشكل في النهاية كعقائد وإيديولوجيات وثقافات مغلقة لدى فرد أو جماعة أو حضارة، يدعي معتنقوها القول الفصل في الإلمام بالحقيقة النهائية المطلقة، وتتنكر لكل ما عداها.

وظاهرة التكفير ظاهرة نشأت أصلاً داخل الفكر الديني وحقوله المعرفية، صاحبت المعرفة الدينية في كل العقائد التي عرفتها البشرية، وهو موقف ديني، ينشأ بناء على فهم أو تأويل وتفسير محدد للنص الديني المقدس في ضوء مقتضيات الإيمان، وعادة ما تكون الفتاوى أو المواقف التكفيرية ناتجة عن نسق معرفي معين، وفهم خاص بالدين، كمرجعية عليا قد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة.

ومن هنا تتقاطع كل من الاتجاهات التعصبية، ومواقف الغلو في التكفير في المعنى العام، في أن الاتجاهات التعصبية ضرب من الافتتان والغرور بالعلم والمعرفة المطلقة، يصاحبها شعور بالحرية في المعتقد وأساليب التفكير، في حين أن التكفير هو –أيضا– ضرب من الافتتان بالعلم والمعرفة الدينية، وامتلاك الحقيقة الكلية، وشعور بالحرية في إطلاق وإصدار الأحكام والفتاوى، بل شعور بالواجب الديني في قول الحقيقة ومن هذا التقاطع السلبي

في الوظيفة ينشأ السؤال المنطقي، هل من علاقة بينهما ؟ وهو ما سنحاول الإجابة عنه عبر تقصي حقيقة الاتجاهات التعصبية، وأسبابها التربوية، ونظرياتها المفسرة، وبحث الاتجاهات التكفيرية، ومنشؤها، وما تثيره مشكلات الخلط بين التعصب للدين. والتعصب في الدين، والتدين، والتعصب في الحداثة والتحديث، وما يقال عن حرية التفكير وحرية التكفير.وذلك عبر مقاربة سيكولوجية وسوسيولوجية، ومعرفية.

ثانيا: تحليل ودراسة مفاهيمية: من المفيد أن نستغرق ولو قليلا في تفحص مفاهيم المشكلة وتفكيكها حتى تتبين لنا خفاياها وأوجهها المتعددة، وعلاقاتها الدلالية والوظيفية:

١: حول المفهوم اللغوي للاتجاهات التعصبية والتكفير:

١ – ١ الاتجاهات التعصبية مفهوم مركب يحتاج إلى تفكيك كلماته حتى نقف على كل دلالاته الجزئية والكلية، فهو يتكون من كلمة التعصب، (من تعصب) وتعني في اللغة العربية، مال معه ونصره على فلان (القاموس الجديد: ص٢٠١– ٢٠٢)[1]. ويشتق في اللاتينية من (الحكم المسبق) (Praejudicium). وقد تطور واكتسب في الانجليزية دلالة تتعلق بإصدار حكم على موضوع قبل الاختبار والتفحص، . وجاء في معجم المصطلحات النفسية بمعنى التحيز(Prejudice) وتعني إجحاف وأذى أو ضرر يلحق بالآخر نتيجة الهوى في الحكم على الأمور.(الشربيني. ص ٢٨٢)، وفي الموسوعة الطبية جاء بمعنى (الحكم أو الرأي المسبق والتحيز، يدل على نظرة سلبية

(١) اعتمد في هذا البحث نظام التهميش الأمريكي، حيث يثبت في نهاية الإقتباس في المتن لقب المؤلف وسنة التأليف إن وجدت ورقم الصفحة أو الصفحات، ورتبت المراجع الورقية والإلكترونية في القائمة حسب ظهورها في المتن، وخصصت الهوامش السفلية للتوضيحات والشروح وتأصيل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة.

تجاه جماعة أو خلفية ثقافية معينة، كما تدل على عدم التعامل مع الفرد بشكل عادل، ومعاملته استنادا إلى قالب أو نمطية جماعته الاجتماعية أو الثقافية، ويعبر عن حكم مسبق غير عادل مبني على معلومات غير متكاملة (آرثر. ٢٠٠٨. ص٥٠١).

١ – ٢ أما الكفر من حيث المعنى اللغوي فهو كلمة لها دلالتها الأصلية المركزية تعني في الثقافة العربية "جحود الفعل الحسن وإنكاره" فقد جاءت بهذا المعنى المركزي في قواميس اللغة العربية ومعاجمها، حيث أوردها المنجد في اللغة والإعلام بمعنى مرادف للجحود والتكذيب والإنكار للشيء مع العلم به، فإذا كفر المرء بالشيء أو بقول ما أو فعل ما، فهو جاحد له (المنجد: ص ٧٩). كما جاءت بمعنى الستر والتغطية، يقال لمن غطى ذرعه بالثوب: قد كفر درعه، ويقال للمزارع: " كافرا " لأنه يغطي البذر بالتراب، لقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾[1] ومنه سمي الكفر الذي هو ضد الإيمان " كفرا " لأن فيه تغطية للحق بجحد أو غيره، وقيل سمي الكافر " كافرا " لأنه قد غطى قلبه بالكفر (بوقرين:ص ٨).ومنه يمكن القول أن التعصب لفكر أو رؤية كالتعصب للمادة الذي يؤدي إلى إنكار الروح مثلا، هو كفر بالروح بمعنى إخفاؤها وسترها.وهكذا يكون التعصب السلبي لأيديولوجية، كفر بما عداها من الأيديولوجيات. وقد وردت في القرآن الكريم بعدة معاني وفي سياقات متعددة كما هي في تفاسير العلماء كالكفر بالتوحيد وبالنعمة، وبالتبري،وبالجحود، والتغطية...الخ (الطفراوي. ص٣٧).وتفسيرها يخضع للسياق الذي وردت فيه.

وفي ضوء هذا التباين والتعدد في المعنى بحسب السياق ميز العلماء كما

(١) سورة الحديد. الآية: ٢٠.

جاء في بحث عمر سيف فئتين، فئة (كفر ما دون الكفر) كما دلت عليه الآية الكريمة: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلانفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[1] وفئة الكفر بمعناه الحقيقي، كما دلت عليه الآية الكريمة: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لاوتَيَنَّ مَالا وَوَلَدًا ﴾[2]. (أسيف ٢٠٠٣: ص.٤١ – ٤٤). وانطلاقا من هذه المعاني يدرج اللغويون كلمة "الكفر" كما لو أنها على النقيض التام من كلمة "شكر" من حيث هي كلمة تدل على اعتراف وتثمين للفعل الحسن.

والواضح من هذه المعاني اللغوية لكل من الكفر والتعصب، أنهما مفهومان يتمركزان في دلالته حول العلاقة الجحودية – إن صح التعبير – التي تظهرها الذات العارفة لأشخاص أو أفكار أو عقائد أخرى، فالتعصب للشيء يعني بالضرورة انحياز لشيء وتهميش أو جحود لغيره، والكفر إن هو إلا جحود لفكرة دينية أو لرأي أو لشيء أو لوضع ما، قد تصل إلى الرفض كما هو الرفض الذي يحمله معنى التعصب السلبي.

٢: المعنى الاصطلاحي للمفهومين كاتجاهين (التعصب والتكفير)

٢ – ١ مفهوم الاتجاهات التعصبية:

رصد "معتز ١٩٨٩" عدة مفاهيم اصطلاحية للتعصب في الثقافة الغربية كمفهوم "ألبرت " الذي أخذ معنى التفكير السيئ عن الآخرين دون وجود دلائل كافية، وورد على أنه اتجاه يتسم بعدم التفضيل ضد أشياء أو جماعة أو أفكار، وهو في دراسات أخرى استعداد للتفكير والشعور المضاد للآخرين، أو هو نسق من الإدراكات والمشاعر والتوجهات السلوكية السلبية المتصلة بأعضاء جماعة معينة... الخ وكل هذه التعريفات التوصيفية للتعصب تتفق

(١) سورة الروم. الآية: ٤٤.

(٢) سورة مريم: الآية ٧٧.

على أنه ظاهرة تتسم بالحكم المسبق مصاحب بالمشاعر السلبية والكراهية. (معتز ١٩٨٩: ص ص ٤٩ – ٥٠).

وأظهرت الدراسات المتقدمة على أن التعصب كما يكون سلبيا (Negative Prejudice) يكون أيضا إيجابيا ، حيث يظهر وكأنه تحيز"مع"وليس"ضد" كما هو الحال في تفضيل أحدهم لأشخاص أو لأفكار أو لجماعة ما ، من غير مبرر ولا معقولية أو التعصب للحق من حيث أن الحق هو الدين والوحي الصحيح، ولذلك فقد استقر تعريفه في القاموس الإنجليزي على أنه (مشاعر التفضيل أو عدم التفضيل تجاه شخص أو شيء ما ، سابقة للخبرة أو لا تقوم على أساس الخبرات الفعلية) وهو ما ذهب إليه أيضا " كلينبرج " حيث يمركز دلالاته حول حكم بالتمييز والتحيز مصحوب بالمشاعر ضد أو مع، دون خبرات مسبقة (معتز ١٩٨٩. ص ٥٠). ومن هذه التعريفات يمكن تصور ظاهرة التعصب على أنها ظاهرة معرفية ووجدانية علائقية (بين الذات، والموضوع، الأنا والآخر) تتمظهر كسلوك وكأنها" اتجاه" يمتد على محور ذو قطبين (إيجابي حيث التقبل التام والتسامح والتماهي والتوحد ، وسلبي حيث الرفض التام والكره والعدائية والعدوانية)ويتوسطهما على نفس المحور نقطة يصطلح عليها بالحياد. أي أن الاتجاه التعصبي كما اختصره"معتز"ينشط على النصف المفضل والنصف غير المفضل، من متصل (التسامح ـ التعصب)

وتحميل التعصب بدلالات الاتجاه نجده عند "ماكوجي" إذ اعتبر التعصب عبارة عن اتجاهات اجتماعية تتكون وتنمو قبل توفر الدلائل الموضوعية (معتز ١٩٨٩ :ص ص.٥٠ ـ ٥١). من حيث أن الاتجاه ليس إلا تنظيم مستقر للعمليات المعرفية والانفعالية والسلوكية ، فلكل فرد اتجاهات معينة نحو أوجه النشاط المختلفة التي تسود البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد ، وعادة ما يتجلى

سلوك التعصب على أنه مجاراة الجماعة أو الرأي الشخصي في الاتجاه أو القيم، أو الرأي والفكر، وكراهية الآخرين على أساس متصلب وخاطئ في الوضعين (المجاراة / الكراهية).

ومن اقتران التعصب والاتجاه في الحمولات الدلالية لهما، نخلص إلى مفهوم مركب (الاتجاه التعصبي) يتعلق بنسق معرفي، وظهر في الدراسات على أنه ذو ثلاثة مظاهر أو أبعاد، ففي بعده السلوكي يعرف على أنه (انحراف عن المعايير السلوكية المثالية والمختصرة في معيار رفض العقلانية وتمركز التفكير في القوالب النمطية واللامنطقية، ورفض تعديل السلوك، ومعيار العدالة والتمركز في اللامساواة والتحيز، ومعيار المشاعر الإنسانية المعبر عنها بالرفض واللامبالاة.

وقد خلص "معتز" إلى تعريف إجرائي للاتجاهات التعصبية أبرز فيه عدة ملامح إجرائية للسلوك الموصوف بالمتعصب في أنه: حكم مسبق نمطي لا عقلاني، بدون دليل منطقي أو خبرة، قد يكون باتجاه مع أو ضد تفضيل أو عدم تفضيل لموضوع قد يكون شخص أو جماعة، أو فكر أو رأي أو نظام...الخ. (معتز ١٩٨٩: ص. ٧٧).

وظهر التعصب في الدراسات الأمبيريقية[١] لعلم النفس كما لو أنه سمة مرتبطة بالاتجاه الديني (التدين) ولذا اقترن فيها مفهوم التعصب بـ "الدين" ففي أصل التعصب كمصطلح يعود إلى القرن الثامن عشر حيث استخدم للتنديد بالتزمت الديني (زيلوتية) نسبة إلى "زيلوت" اليهودي المتعصب

(١) الأمبيريقية: Empiricism يقابلها في اللغة العربية (التجريبية، أو الحسية) وتشير إلى مذهب في المعرفة العلمية ينطلق من مسلمة أن العالم الخارجي الموجود موضوعيا هو أصل المعرفة، ويقوم على مبدأ التجربة الحسية كأساس وحيد للمعرفة العلمية. أي أنه مذهب أو اتجاه يعتد بالمعرفة الحسية وينكر المعرفة العقلية أو الميتافيزيقية.

(Zelotism) (هانبال. ٢٠٠٢: ص ٧) واستخدم بهذا المعنى في كل كتابات من يوصفون بأنهم حداثيون، فقد دلت دراساتهم العديدة على أن الأساليب التربوية القاسية والمنمطة تنتشر أكثر في الأسر الدينية الملتزمة، والمنحدرة من البيئات المتدينة المتدنية، بغرض تكرار ذواتهم في أبنائهم، ومن ثم أقروا بوجود علاقة إرتباطية بين السلوك التسلطي والتطرف الديني أو الدين ذاته في بعض الدراسات. فعلى مقياس التزمتية وجد أن المتدينين هم من تحصلوا على أعلى الدرجات، وهم أكثر انغلاقا وأكثر انفعالية وأكثر اغترابا وأكثر تعصبا وجمودا وأكثر رفضا للآخر...الخ في حين وجد في دراسات أخرى أكثر موضوعية وأقل سلبية تجاه الدين، أن العقيدة السليمة ارتبطت كثيرا بالشخصية السوية وإشباع الحاجات والاستقرار النفسي، كما وجد أن اللاسواء أو الشخصية المرضية المتعصبة تنتشر أكثر في أوساط الملحدين الرافضين للدين المتعصبين.(المهدي. ٢٠٠٢: ص ص ٤٣ – ٤٧). ومهما يكن من أمر فإننا نرصد ثلاث فئات من الدراسات الأمبيريقية بخصوص العلاقة بين التدين وسمات الشخصية فتؤكد بعض الدراسات وجود العلاقة موجبة، وتؤكد أخرى وجود علاقة سلبية وتنفيها أخرى (محمد خليفة ٢٠٠٢: ص ص ١٠ – ١١). وهو ما يقودنا إلى ضرورة تحليل مفهوم التكفير من حيث هو إصدار حكم ديني ناتج عن فهم محدد للتدين ارتبط بالتعصب.

٢ – ٢ حول المعاني الاصطلاحية للكفر والتكفير:

٢ – ٢ – ١ حول معانيهما الاصطلاحية:

يقول الشيخ "بكر أبوزيد" في كتابه درء الفتنة، (والكفر في الاصطلاح هو اعتقادات و أقوال وأفعال جاء في الشرع ما يدل أن من وقع فيها ليس من المسلمين، وقد أكد جمع من أهل العلم، إجماع العلماء على أن الكفر يكون بمجرد القول أو الفعل.(بوقرين:ص ٨).واستخلص "عمر أسيف" من

دراسة مستفيضة لكلمة الكفر وما يراد بها، معاني تتعلق بـ "نقض الإيمان، وكفر بالنعمة وعصيان، وامتناع، وجحود، وستر، وحجب، والإخلال بالشريعة المخرج من الملة، أي هو الكفر بالدين في مجمله.(الحوالي:ص ص ٢ – ٦). والكفر في ما هو شائع في الشريعة نوعان أصلي وراثي، ومرتد طارئ.

وكلمة الكفر كمفهوم اصطلاحي هي كباقي الكلمات (تاريخانية) تكتسب معاني وتفقد أخرى عند استعمالها وتوظيفها في سياقات لغوية متعددة ومتنوعة، فتستعمل مرادفة لمعناها المركزي أو قريبة منه أو بعيدة عنه، أي تتلون بلون الوضعية والسياق، حتى تظهر وكأنها في حقول دلالية أخرى فاقدة لمعناها الأصلي المركزي نهائيا وأدمجت في دلالات لا علاقة لها بمفهومها الأصلي.

وإذا كان مفهومها الأصلي والمركزي في اللغة العربية أكثر تعبيرا عن فعل الجحود والتنكر للأفعال الحسنة التي تحدث بين الأشخاص كما أسلفنا، فإن استعمالها في السياق الدلالي الإسلامي، حول دلالتها ونقلها من التعبير بها عن فعل الجحود في نطاق العلاقة بين البشر، إلى التعبير بها عن فعل الجحود في نطاق العلاقة بين الإنسان وربه، أي صارت تعني جحود الإنسان لفضل الله عليه أي الكفر به.(إيزوتسو ٢٠٠٧: ص ص٤٧ – ٤٨). وهو ما يقابل الشكر لله، من حيث هو الإيمان به، أو صفة من صفات المؤمنين، فصارت كلمة "الكفر" بذلك تستعمل في الثقافة الإسلامية للدلالة على كل ما ينقض الإيمان بالله وجحود نعمه وإنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة، كإنكار الوحي وتكذيب الرسول وعدم التصديق بالجنة والنار والبعث والملائكة والجن واليوم الآخر، والشرك بالله...الخ.

وتعد كلمة كفر، كلمة "مركز" في الحقل الدلالي الخاص بها لطائفة من الكلمات والألفاظ (كالضلال والتيه والردة، والعصيان والتكذيب

والظلم والاستكبار والشرك والإلحاد والنفاق والبدع، من حيث أن البدع هي الحدث في الدين بعد الإكمال.) (الوهيبي:ص ٢٨). ونقف على مركزية ومفتاحية كلمة الكفر في القرآن الكريم في أنه يقسم العباد بدلالة المفهومين(الإيمان والكفر) إلى مؤمنين وكافرين، وعصاة، وطائعين، والخالدين في النار والخالدين في الجنة. فليس هناك في عقيدة أهل السنة والجماعة من ذنب يخلد مرتكبه في النار ويجعل الفرد مرتدا عن الإسلام إلا الكفر والشرك، عندما يموت مرتكبهما عليهما، وما عدا ذلك من الكبائر لا يخرج فاعله من الملة: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[1] وأن القول بخروج مرتكبي الكبائر - غير الكفر- من الملة ومن جماعة المسلمين، هو قول ورأي متطرف ومتعصب، ويعد غلوا في التكفير كما هو الحال في مذاهب المرجئة والخوارج وغيرهم من الفرق المتطرفة. كما تقسم تبعا لذلك الدور إلى دار حرب وردة، ودار إسلام وسلام. وهو ما يترتب عنه رؤى وعلاقات وسلوكات وأحكام تحدد العلاقة بين المسلمين والكافرين.

٢ – ٢ – ٣ حكم التكفير في الثقافة الشرعية الإسلامية:

التكفير في الإسلام حكم شرعي لا لبس فيه مثله كمثل الحكم بالحلال والحرام وبيان الواجب والمباح والمكروه والفرض والواجب...الخ بل هو واجب لبيان أحوال الناس وضبط معارفهم وسلوكاتهم في حياتهم وردها إلى الله وإلى سنة رسوله الكريم. وهو حق من حقوق الله ورسوله كما ذهب إلى ذلك العلماء. وبهذا أفتى معظم علماء الإسلام ومنهم كبار علماء المملكة العربية السعودية في بيان حول الغلو في التكفير (وقالوا: بأن التكفير حكم

(١) سورة النساء. الآية: ٤٨.

شرعي) غير أنهم وضعوا لذلك ضوابط وحدود في ضوء ما حشدوه من أدلة شرعية من الكتاب والسنة، حيث خلصوا إلى أنه لا تكفير إلا من دل على كفره الكتاب والسنة دلالة واضحة، ولا يمكن تكفير إنسان لشبهة أو ظن، بل قالوا بأن التكفير هو الأولى من غيره أن يدرأ بالشبهات، لما له من آثار خطيرة على الفرد والمجتمع كسفك الدماء وتفجير الممتلكات وحرمان من الحقوق وزعزعة الأمن والاستقرار...الخ. وتبرؤوا من كل ما يصدر من فتاوى تكفيرية للحكام من غير دليل ولا إقامة حجة. (الوهيبي: ص ص ١٠٢ – ١٠٤). وقد قال كثير من العلماء القدامى بهذا الرأي كالغزالي وبن تيمية وكذا السبكي وغيرهم. (السقار:ص ٦).

٢ – ٢ – ٤ ضوابط وموانع التكفير:

حذر العلماء من التمادي في التكفير لعواقبه الوخيمة، وأبرز العواقب ما جاء في حديث الرسول ﷺ من أنه (إذا قال الرجل لأخيه " يا كافر" فقد باء بها أحدهما)[1]. ولذلك وضعت له ضوابط، فأهل السنة والجماعة لا يكفرون أحد من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله كفعل الصغائر والكبائر أو ترك الواجبات خلافا للوعيدية الذين يكفرون أهل الكبائر، وللتكفير موانع كثيرة عند أهل السنة كحالات الجهل والنطق بالشهادتين وعدم قيام الحجة على المعين، وأهل الفطرة، وحالات الإكراه...الخ والتأويل ما لم يؤد إلى التكذيب ونكران الدين أو نكران أصل من أصوله (الوهيبي: ص ص ١٤٦ – ١٠٤). ووضع له ضوابط شرعية كثيرة كالحكم على الظاهر دون الباطن وقيام الحجة وعدم التكفير بأي ذنب...الخ (القحطاني:ص ص ٢١ – ٢٢). ويفرق أهل السنة والجماعة بين النوع والشخص المعين في قضية

(١) رواه البخاري ومسلم.

التكفير، فيطلق الكفر إطلاقا عاما ولا يطلق على معين، إذ يمكن القول بأن العلمانيين الملحدين كفارا والشيوعيين كفارا، أو من دعا إلى كذا وكذا فهو كافر، فكل ذلك يعتبر حكما على النوع، وإذا تعلق الأمر بشخص بعينه وجب التحقق والتثبت من كفره، فمن جحد أو كذب أو أنكر أو استحل أو شك في أمر من أصول الدين لا يكفر إلا بعد قيام الحجة عليه والتثبت بمحاورته (الوهيبي:ص ص ٢٤٤ – ٢٤٩). إذ قد يكون قد قال كفرا أو اعتنق كفرا ولكنه جاهل به لا يعلمه أو تشابه عليه الأمر أو لم تبلغه النصوص(القرضاوي.١٦٧٨ ص ص١٩ – ٢٣). كما يطلق على مرتكب الكفر الأكبر الذي يخرج صاحبه من الملة ويخلده في النار، ولا يطلق على مرتكبي كبائر الذنوب التي لا تخرج من الملة ولا تخلد في النار. فالإقرار بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) هي عاصمة الدماء والأموال ولا يجوز تكفير من قال بها ظاهريا، ولو كان كافرا بقلبه، ما لم يأت بما ينقض إسلامه وإيمانه، فالمنافقون من حيث هم صنف من أصناف الكفار يعاملون في الدنيا كفئة من المسلمين كما ثبت عن رسول الله ﷺ.(الأهدل:ص ٥٨). ويعذر عند أهل السنة ولا يكفر كل من أول من غير علم، ولا يكفر أحد بالمآل ولا بالتقليد ولا بالجهل (الوهيبي:ص ص ٢٢٨ – ٢٤٤).

وبناء على هذه المسلمات العامة والقواعد الضابطة للكفر قولا وعملا، كما هي مبينة في القرآن والسنة وفصلها العلماء في الشرك وأنواعه (العقيدي، الطلب، الشفاعة، سؤال غير الله، شرك النية، شرك التقرب..الخ) (القرني: ص ص ٩٠ – ١٢١) والكفر بأنواعه (القرني: ص ص١٢٣ – ١٦٠) التكذيب، الضلال، وإلغاء أو ترك جنس العمل وأصل من أصول الإسلام، والترك المطلق للصلاة، وتحكيم القوانين الوضعية مع رفض الشريعة...الخ)

بناء على كل ذلك تصدر أحكام التكفير من طرف هيآت شرعية أو فتاوى للعلماء المؤهلين شرعا أو محاكم شرعية. فيصبح من كفر (بضم الكاف وشد وكسر الفاء) بعد إقامة الحجة والدليل والإثبات، خارج الإسلام ونطاق الجماعة الإسلامية ويفقد حق الولاية والنصرة، ويحاكم، ويطرد من رحمة الله ويفصل عن زوجته المسلمة وأولاده...الخ (القرضاوي.١٩٧٨: ص ٢٣) وهو ما يقتضي المعرفة المتخصصة بالدين والموضوع معا، حتى تكون الفتوى – أو الحكم – قائمة على بينة من حيث هي العلم بحيثيات وتفاصيل الموضوع المقصود (فكر وأيديولوجية وبرنامج وإستراتيجية وإجراء مؤسسي). فلم يصدر الحكم على البهائية والقاديانية والشيوعية بالكفر وكفر من أعتنقهما إلا بعد التبين من أصول تلك الشرائع وبنيتها الفكرية والعقائدية ومقاصدها ومآلها ونفعها وضرها وصلتها بعقيدة الإسلام.

٣ – ما بين الغلو في التكفير والاتجاهات التعصبية من تعالق في الدلالات والمعاني:

من بيان دلالة ومعاني المصطلحين (الغلو في التكفير، والاتجاهات التعصبية) يتضح أنهما مصطلحين متعالقين ومتشابكين في الدلالة والمعنى، فكلاهما يشتركان في عدة مترتبات ومؤشرات سلوكية ومعرفية.

فأما المترتبات المعرفية فكل من المتعصب السلبي والمغالي في تكفير الناس هو شخص واحد متميز في نظامه المعرفي بـ:

- التصلب المعرفي حيث ينتمي إلى أيديولوجية[1] وثقافة إبليس" أنا خير منه": ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) ﴾ [2] والثقافة الفرعونية " المعبر عنها في القرآن الكريم:

(١) يقصد بالأيديولوجية علم الأفكار.

(٢) سورة الأعراف. الآية: ١٢.

﴿ ..قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾[1]
وقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الاعْلَى ﴾[2].

- القطبية الحادة في التفكير، حيث رؤية العالم كما لو أنه (أسود، ابيض) (صحيح، خطأ) (إيمان، كفر) (رفض، قبول)...الخ.
- الإغلاق في التفكير، حيث التمركز حول الأنا والذات وفي دائرة مغلقة من الأفكار والمعتقدات لا تقبل الاتصال أو الحوار بل تنفر منه، وتحذر منه وتحاربه ولا تؤمن إلا بعلاقات الاستيعاب والهيمنة (التوتاليتارية)[3].
- الاعتقاد الجازم بامتلاك الحقيقة كلها ولا يملكها غيره وأن تفسيره للوجود والأحداث والنصوص وفهمه هو التفسير والفهم الصحيح، وكل ما عداه خاطئ يجب أن يصادر ويحارب.
- الاغتراب الفكري، حيث الإحساس الشديد بالغربة والتميز عن الغير وعدم الانسجام وصعوبة التكيف النفسي والعيش في جزر من التأمل والتفكير منعزلة عن العقل الجماعي.

وأما المترتبات السلوكية والنزوعية: فكل من ذوي الاتجاهات التعصبية، والغلو في التكفير تطغى عليه سلوكات وتتمركز تصرفاته حول:

- تسفيه وتتفيه آراء الناس المختلفة وعدم الاعتراف بها والاستعلاء عنها وازدرائها ومحاربتها ومصادرتها.
- سوء الظن بالآخر وإظهار حساسية مفرطة تجاهه.

(١) سورة غافر. الآية ٢٩.
(٢) سورة النازعات. الآية: ٢٤.
(٣) بالتوتاليتارية لفظ فرنسي (Totalitarianism) ويعني به "الكلية أو الكليانية " ويطلق اصطلاحا على الحكم الفردي الشمولي الاستبدادي، ويعمم استعماله على أنماط التفكير، فيقال التفكير الشمولي ويقصد به التفكير المهيمن والمحتكر للمعرفة والمختزل للحقيقة في رأي كلي واحد كالشوفينية واستالينية والشيوعية.

- الخضوع الكلي لنظرية المؤامرة والتربص بالآخر.
- العزلة والتحيز والانحياز والانسحاب الاجتماعي.
- الشدة والغلظة والترهيب في التعامل مع المختلف ورفضه وقد تصل إلى حد قتاله كما هو في حالة جماعات المعارضة المسلحة والخروج عن الحكام من غير سابق إنذار.
- التشكل في جماعة مغلقة وتنظيمات سرية يصعب الدخول إليها أو الخروج منها معادية لكل ما عداها، وعادة ما تتحول إلى جماعات معتدية ومقاتلة.
- تحريم التعامل مع بعض الصيغ الحداثية والمؤسسات المستحدثة كالبنوك، وتجريم من يتعامل معها.
- الحكم على المجتمعات الإسلامية المعاصرة بأنها مجتمعات جاهلية والحكم على من لا يهجرها بالكفر (أي تكفير المجتمعات القائمة).

تلك هي أهم سمات التكفيريين من كل المذاهب، يتميزون بالتطرف والتعصب من حيث هو تنطع وغلو وتعنت وتشدد يتجاوز الحدود الشرعية قولا وعملا وهو ما نهى عنه الرسول ﷺ ويخالف روح القرآن.

ومن ثم نستطيع القول بأن كل من التكفير والتعصب، يدرجان ضمن الاتجاهات التي تحكم العلاقات البينية التي تكون عادة منمطة، وتكون ذات دلالات إيجابية حين يكون التكفير في إطاره الشرعي ويكون التعصب (مع) شرط أن يكون هو الحق المبين. كما تكون العلاقة المنمطة ذات دلالة سلبية وعدائية حين يكون التكفير مغال فيه (الغلو في التكفير) ويكون التعصب في اتجاه سلبي (ضد). فيكون كل واحد منهم على الطرف السلبي المتصل يمتد بين قطبين (التسامح – التعصب السلبي) وفي شأن العلاقة بين سلوك التعصب السلبي والغلو في التكفير، نستطيع القول أن التعصب والتكفير قد يظهران كما لو أنهما شيء واحد متحد في الصيغة، وقد

يتقاطعان في مساحات من المعاني، وقد يستوعب أحدهما الآخر وينبعث أحدهما من الآخر في توالد مستمر، وقد يكون الغلو في التكفير ليس إلا نتيجة للاتجاهات التعصبية الدينية.

وتنشط مفاهيم مجاورة ومرابطة ومتداخلة من حيث الدلالة قريبة من كل من التعصب والتكفير، كالتطرف الفكري الذي يجعل صاحبه لا يقبل إلا رؤية واحدة للعالم من حوله، والتصلب المعرفي الذي يعجز صاحبه عن مراجعة نسقه المعرفي القبلي ولا يقبل ذلك مهما تغيرت الأحوال والظروف، والجمود الذي يجعل صاحبه ثابت في أفكاره ومقلد لغيره ولا يقبل أي تطوير لمعارفه، والعصبية التي تزج بالإنسان في أنساق عرقية أو أيديولوجية مغلقة وينحاز إليها ظالمة أو مظلومة، والدوغمائية[1] من حيث هي الوثوقية والمطلقية واليقينية، وأحادية العقلية: Single Mindedness من حيث هي كما عرفها صفوت فرج (٢٠٠١) بأنها مجموعة الخصائص المعرفية والمزاجية التي يشكل سلوكا منسقا يتعارض مع قبول التنوع والحركة بين البدائل، ويدور صاحبه في إطار تقريري، يتجنب الاحتكاك، لا يرى إلا ما يريد أن يراه، استبعادي، صارم في مساراته، (محمد خليفة ٢٠٠٦ :ص ص ١٤ – ١٧). والعدوان من حيث هو عنف بأنواعه وأقسامه كما هو في الدراسات السيكولوجية والسوسيولوجية (مباشر أو غير مباشر، بدني، لفظي، إيجابي سلبي). فكل هذه المصطلحات يمكن أن تدرج كصفات ومميزات يتميز بها كل من المتعصب والتكفيري على حد سواء.

(١) الدوغمائية: Dogma تترجم إلى اللغة العربية بمعنى "الآراء الشخصية عندما تتحول إلى عقيدة صارمة والإيمان والوثوق بها بشكل جازم، دون الاستناد إلى أي دليل ودون أي مناقشة، وتؤدي بصاحبها إلى التصلب الفكري والمعرفي والتعصب الأعمى فيوصف تفكيره بالدوغمائي Dogmatism

٤ – الغلو في التكفير من حيث هو اتجاه تعصبي وأصوله التاريخية:

الغلو هو مجاوزة للحد والإفراط بشأنه، أو تعظيم لشيء أو لشخص أو لمذهب أو لرأي، فقد غلت النصارى في تعظيم الرسول ورفعه إلى مرتبة الربوبية، وغلت الصوفية في تعظيم الأولياء، وغلت الخوارج في التكفير، وأفرط المعتزلة في العقل، وأفرط البعض في تحريم ما أحله الله بسبب الحيطة المفرطة، ومحاسبة الناس على الصغائر...الخ (الطرفاوي:ص ٨) وغالى الناس كأفراد في إطلاق التكفير على كل من ارتكب معصية أو خرج عن طقوس التدين، أو حتى من خالف الجماعة، وكم من فقيه صنف من العلماء والعارفين تورط في الغلو وأصدر أحكاما تكفيرية قاسية دون التمحص، وكم من أستاذ وطالب علم أعطى لنفسه الحق في إصدار فتوى التكفير. وشواهد الرمي بالكفر بين الأساتذة في الجامعات من غير إقامة الدليل، كثيرة وتتكرر من حين لآخر كما تتكرر مواقف الرمي بالتعصب على كل متدين من دون تبين، وبإشاعة الحكم بالتكفير وغياب المرجعيات صارت وكأنها هواية معرفية ونفسية مغرية وغاوية. والغلو محرم في جميع الأديان وحرم في الإسلام لقوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ.. ﴾ [1] وظاهرة الغلو سلوك ومعرفة شملت العقيدة، والعبادات والمعاملات والعادات، وحتى مناهج الاستدلال بالعقل (المعتزلة) أو بالقلب (المتصوفة) وفي العلمنة والتحديث والحداثة كذلك...الخ. (الطرفاوي:ص ص ٩ – ١٣).

والغلو في التكفير ظاهرة دينية قديمة قدم الأديان، ولم يسلم منها أي دين أو عقيدة أو فكر قديم أو حديث، – إلا من عصم الله ومنهم المعتصمون بكتاب الله وسنة رسوله الكريم – رغم ثبات سلبيتها كتجربة عند الكل.

(١) سورة النساء. من الآية: ١٧١.

وفي التاريخ الإسلامي لم يمنع حديث الرسول ﷺ لمعاذ وعلي رضي الله عنهما، حين بعثهما إلى اليمن (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا) وقوله (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق) أو كما قال الرسول. (عبد الجبار: ص ٤٤) فلم يمنع ذلك وغيره ـ رغم ثبوت عند الكل أن الدين الإسلامي في روحه دين يسر ورفع الحرج – من نشوء ظاهرة التطرف والغلو في أوساط المسلمين، فقد ظهرت في المجتمع الإسلامي – حسب ما هو ثابت في كتب التاريخ بعد ظهور الخوارج وقضية التحكيم والنزاع حول الخلافة (بوقرين: ص ٩) وما أثارته مشكلة الخروج عن الجماعة من حيث هي مفهوم يتعلق بالخروج عن السنة وأحكام القرآن والملة، أو من حيث هي مفهوم يتعلق بالخروج عن الإمام كما في ظاهرة "الخوارج " وخروجهم على علي كرم الله وجهه وفارقوا الجماعة، فلم يتردد علماء السنة والجماعة من وضعهم في حكم العصاة البغاة، بل أن البعض قد مال إلى تكفيرهم – مع أن الأصل لا يكفرون لأن عليا، رضي الله عنه لم يكفرهم – حينما تمادوا بعد خروجهم على علي رضي الله عنه في تكفيرهم له وتكفير معاوية وعمرو بن العاص وامتد تكفيرهم بالمعصية واستمر فطال الخلفاء والأمراء كما جاء في شرح العقيدة الطحاوية (الحوالي. ص ص ٢ – ٦).

٤ – ١ اتجاهات الغلو في التكفير والتفريط في الدين:

٤ – ١ – ١– الغلو في التكفير والتفريط في العصور الإسلامية القديمة:

تحول الحكم بالكفر من حيث هو حكم شرعي إلى اتجاه يتبناه فرد أو جماعة يعطي لنفسه الحق في إصدار فتاوى بدون حدود وضوابط أو كما يعتقد، حيث ظهرت كاتجاهات حين امتدت واستمرت مع الزمن مع ظهور الفرق الإسلامية (بعد القرن الثالث للهجرة) في شكل تنظيمات مذهبية، وبرزت كظاهرة مثيرة حين تعدد فهم النص القرآني لدى علماء المسلمين،

واختلف وتباين، وتناقض أحيانا، فمنهم من أول وفسر النص والواقعة على هواه أو كما تراءى له النص والوضع وبدون حدود، ومنهم من ألتزم بظاهر النص وشكله وكلماته ودلالاته، ومنهم من تقيد والتزم بوضعية النص وظروف نزوله وسياقاته، ومنهم من التزم بالمعاني اللغوية دون سواها ومنهم من جمع وزاوج بين هذا وذاك وجمع بين عدة اتجاهات...الخ ومع مرور الزمن والابتعاد عن زمن التلقي وبفعل اتساع الرقعة الإسلامية وتنوع ثقافات المسلمين ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم أخذ الفكر الإسلامي يتعدد في خطابه ورؤاه ومذاهبه، حيث راكم المسلمون معارف وأحداث وخبرات وتشكلت تدريجيا مذاهب معرفية (اتجاهات) تجذب نحوها أتباع وأنصار، وأضحى الإسلام أفكارا متنوعة وجماعته فرق متعددة، تنشط على محور وسطه الاعتدال وطرفاه هو الغلو والتعصب والتطرف، فكل فكر ينشط في دائرة الوسط يعد فكرا اعتداليا ويقترب من الفهم الصحيح، وكلما ابتعد عن تلك الدائرة في اتجاه التسامح إلى أقصاه حيث التفريط في الدين وشرائعه، أو ابتعد في اتجاه التشدد في الدين والتعصب فيه نحو أقصاه، حيث الإفراط والمبالغة والتعنت والتنطع، يعد (في الاتجاهين) فكرا متطرفا وغلوا لا يجوز شرعا في كلتا الحالتين، لقوله ﷺ (هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون) وقوله كما روى عنه بن عباس رضي الله عنه غداة العقبة (أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)[1] فكل المناهج القائمة على البدعة من حيث هي مناهج غير سليمة أفضت بأصحابها إلى الخروج عن الدين كما حدث للمتصوفة، حيث خرجوا بالغلو في الطاعات – عن طريق الزهد – عن الطاعات ذاتها، فقالوا بالإتحاد والحلول كقولهم (أعبد الله

(١) رواه بن ماجة والنسائي.

حتى أتحد معه)(وما في الجبة إلا الله). وبذلك كفروا – كما حكم عليهم البعض – وخرجوا عن وسطية الإسلام، وهو ما أدى إلى انتشار نزعة التكفير، حيث كفرت الفرق المتطرفة بعضها بعضا بمجرد شبهة وبغير دليل واضح في أحيان كثيرة، وانحرفت وطغت وتجبرت وأخرجت الناس من الملة. فالتكفير بالمآل وبالمعصية، أو بترك الواجب، أو تكفير المكره، أو الجاهل، أو المؤول، أو المقلد، أو تكفير المعين من غير إقامة الحجة، أو تكفير ذوي الفطرة، أو من لم تبلغه الدعوة...الخ كله من باب المغالاة في التكفير ونتيجة للتعصب وعدم فقه معنى الإيمان من حيث هو مركب من الاعتقاد والامتثال لا ينفصلان، فلا يجوز كل ذلك عند أهل السنة والجماعة.كما أوضحنا سابقا.

كما تطرف آخرون في اتجاه آخر مضاد نحو التفريط في الدين وإحلال العقل محل الوحي، ونكران الكفر على الكافر، فعفا المفرطون في الدين، عن المؤول تأويلا بدون حدود أفضى إلى الكفر، وعفوا عن من أنكر معلوما من الدين بالضرورة، وعفوا عن من شك في أصل من أصول الدين...الخ. والكل أبدع مرجعيات خاصة به، بل وبقبيلته يفسر ويؤول بها النص المقدس، وارتباط فعل التكفير بما هو منتن كما وصفها الرسول ﷺ، (أتركوها فإنها منتنة) مما دعا "مالك بن أنس" رحمة الله عليه إلى إطلاق قاعدة منهجية دقيقة مشهورة تقول (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) أي بالرجوع بالدين إلى صفائه كما كان يعاش في عهد الرسول والخلفاء الراشدين.وهو ما يفيد دعوة إلى تفكيك كل الجماعات والمذاهب والعودة بها إلى صفاء الدين زمن التلقي عن الرسول.

٤ – ١ – ٢ – الغلو في التكفير والتفريط في العصور الحديثة:

امتدت نزعة التشدد في التكفير على الشبهة وكذا نزعة التفريط في أحكام الله إلى العصور الحديثة لاسيما بعد سقوط الخلافة الإسلامية

ومرجعياتها الدينية ونشوء ظاهرة الاستعمار وتفكك المرجعيات الأصلية وانحصار الاجتهاد لصالح التقليد.

أ ـ الغلو في التكفير في العصر الحديث:

وبرزت ظاهرة التكفير على الشبهة والظن (الغلو) في العصر الحديث وتجلت خصوصا في تكفير الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله في البلدان الإسلامية، فعقب التخلص من الاستعمار، ورث الحكام (ومعظمهم ورثة غير شرعيين) للحكم فآثروا الحكم بقوانين الحداثة وتقليد الكفار وإتباعهم في مشاريعهم التنموية وبناء المؤسسات والدولة الحديثة على المناهج الغربية، وبذلك كانوا ـ في نظر الإسلاميين وحركاتهم ـ انقلابيين على قيم الأمة، فنمت في كل قطر إسلامي جماعات مغلقة تكفر الحكام بذلك السبب وتدعوا للخروج عنهم وخلعهم وقتالهم لاسيما عندما استبيحت في كثير من الأقطار محارم الله وانتشر الفساد في ظل حكمهم. ويؤرخ البعض لهذه الظاهرة المعاصرة بكتابات المودودي والسيد قطب (الطرفاوي:ص ص ١٠٩ – ١٢٦) حيث أدت إلى نشوء الجماعات المغلقة المضطهدة بمرجعيات خاصة جديدة كرد فعل غير واع عن التفريط في أحكام الدين وعدم تطبيق الشريعة الإسلامية ورفضها من طرف من ورثوا الحكم عن الاستعمار وتبنيهم للمشاريع الحداثية التي تحكم بغير ما أنزل الله، بصفة توتاليتارية (كلية) ودوغمائية (تعصبية) قاتلة، حيث فسحت المجال واسعا – كما يعتقد الإسلاميون – لتغيير عقيدة الأمة وانتشار مظاهر الانحراف الاجتماعي والتنافر المعرفي في المدارس والجامعات المستحدثة وانتشار اللامعيارية. وهو ما قاد إلى ظهور الغلو في أوساط التنظيمات (الطلابية والشعبية)التي تكفر الناس والمجتمع والحكام ومن والاهم، وصفها كل الدارسين بأنه تكفير غير قائم على دليل شرعي، أو قائم على تأويل مغرض للآيات والنصوص، ورد

فعل انفعالي غير مدروس شرعا، إذ أن المفسرين والشارحين لقوله تعالى من الآية ﴿ ..وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[1] قد اختلفوا في معنى الكفر المقصود فيها، أهو الكفر الحقيقي؟ أم هو مجرد عصيان؟ والأرجح عند علماء السنة والجماعة هو مجرد عصيان لا تستلزم التكفير، ويصنفونه ضمن ما قال به بن عباس رضي الله عنه من ضمن " كفر دون كفر" (أسيف:ص ص ٤٦ – ٥٧). وبذلك حرم معظمهم الخروج عن الأئمة وولاة الأمور وكل من تجب له السمع والطاعة بالمعروف، ولو جاروا في حكمهم، كما حرم الدعاء عليهم، بل يرون أن طاعتهم من طاعة الله ورسوله ومن خرج عن الطاعة ومات، مات ميتة جاهلية كما قال الرسول ﷺ، فالخروج عن الأئمة يعتبر معصية ويصنف كل خارج عنهم، ضمن البغاة عند الحنابلة أو مع الخوارج الذين يكفرون بالذنب (القحطاني:ص ص ٥ – ١٨).

وقد شاعت هذه الجماعات باسم الجماعات التكفيرية، ووصفت في الدراسات التربوية والاجتماعية الحديثة بأنها تنظيمات تتعصب لرأيها وتتحلل من أية مرجعية إلا مرجعية مفكريها، حيث تتطرف نحو مواقف التشدد والقطيعة مع كل ما هو وسطي اجتماعي، فتظهر متجاوزة لحد الاعتدال نحو موقف القبول المطلق لما تعتقده، والرفض المطلق لكل ما عداه من الأفكار، وتتربع في النهاية القصوى في سلسلة متدرجة حتى تقع في الخروج عن الدين والعادات والتقاليد وكل ما هو وسطي ومألوف، إن في المجال السياسي أو الثقافي أو الاجتماعي أو التربوي، وتتحول عادة إلى ما يسمى الآن بـ" إرهاب سياسي أو فكري أو ثقافي..الخ) (عبيد ١٩٩٧): ص ص ١٣٣ – ١٣٤).

ونذكر من بين هذه الجماعات المغلقة وأشهرها على الإطلاق ما عرف

(١) سورة المائدة: من الآية: ٤٤.

بجماعة (الهجرة والتكفير) حيث اختصرت الإسلام في ما يقوله مفكروها ومنظموها وما يصدرونه من فتاوى تكفيرية بوصفهم علماءها الذين ينقاد أتباعها ومقلدوها وجوبا لتوجيهاتهم ولأفكارهم وفتاواهم ويقتدون بسلوكاتهم بالطاعة العمياء (التعصب) وفي الوقت نفسه تحرم وتجرم الخروج عن الجماعة وتنظيماتها من حيث هي جماعة المسلمين الوحيدة. وقد امتدت وانتشرت كأفكار وتنظيمات عبر الأقطار الإسلامية بأسماء مختلفة وكونت تنظيمات ميليشياوية[1] استباحت دماء الناس وأموالهم وأعراضهم وتقتل من أجل التقرب إلى الله، بناء على فهمهم للنصوص لاسيما النصوص المتعلقة بـ (البراءة، والولاء، والحاكمية، والربوبية...الخ) وتمحورت أفكارها حول طاعة الأمير، والعزلة، وهجرة المجتمع والاغتراب عنه فكرا وعملا بوصفه مجتمع جاهلي. وتجب عندهم هجرته مستدلين في ذلك بقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[2]. ومن لم يهجره يعد من أهله (عادل: ص.٤٣). ونتيجة ذلك ألصق بهم مصطلح "التكفيريون" وللغلاة المنضوين تحت هذه الجماعات – حسب الدارسين – منهج يتسم بـ ضعف جانب التبين، التأويل المكلف، جهل قواعد الاستدلال، جهل قواعد التكفير وموانعه، الانغلاق الفكري والوجداني، الجهل بتمييز ما بين أصول الدين وفروعه.(العقل.ص ص. ٣٧ – ٤٣).

ب – اتجاهات التفريط في الدين في العصور الحديثة:

وفي مقابل هذا التطرف في التكفير والمغالاة في الدين، يوجد متطرفون في التفريط في الدين باسم العقلنة (اعتماد العقل لا غير)والتجديد ومحاربة الجمود والتقليد وما يسمونه بالماضوية، (الرجوع إلى الماضي) فالدهشة التي

(١) كلمة تطلق على التنظيمات الحربية العسكرية وتتميز بالإنغلاق الأيديولوجي.

(٢) سورة. المدثر. الآية: ٥.

أصابت بعض النخب العربية في طور نشوئها في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحديدا، من كل وافد من الغرب، كانت دهشة سلبية انفعالية، أدت إلى تبعية مفرطة وتقليد غير مبصر لعواقبه، وتعاطي انفعالي مع كل وافد من الأفكار والمشاريع المسماة " النهضوية " يوم ذاك، وتحت هذا المسمى، تطرفوا في التأويل وإخضاع النص المقدس لما يسمى الواقعية والعصرنة والعقلنة وتكييف الموروث وقراءته وفقا للظروف والأحوال باسم التجديد، حتى أفرغوا النصوص من ماهيتها ومقاصدها الروحية، وهم في ذلك متأثرون بالصورة السلبية التي كونها الغرب الحداثي عن الدين بسبب الاضطهاد الكنيسي، وهي صورة اختزلها اللاهوت في المعرفة الغيبية وفي الفلسفة معرفة غير صادقة، وغير منطقية، وهو مشروع للخلود والبحث عن المعنى والتكامل، واختزلها "فرويد" في العصاب جماعي ووسواس ووهم، وعند "سكنر" فكر ميتافيزيقي (ماورائي)[1] وهمي غيبي، وعند "ماركس" أفيون الشعوب، وعند "فروم" تجربة انقسمت إلى دين تسلطي ودين إنساني...الخ (المهدي ٢٠٠٢ :ص ٢٧) فالحداثي الشيوعي مثلا ينعت ذاته كشيوعي خير من المتدين الذي ينتمي إلى الله، وهو قيمة في الزمن، والآخر المتدين مغيب في الأبدية، والعالم في نظره ليس بحاجة إلى الخلاص والمخلصين من الخطيئة، بقدر ما يحتاج إلى التحرر من الجوع والقمع. (هانيال ١٩٩٠ :ص ٥٢). فقد وصل أمر التفريط في الدين في عهد الاشتراكيين في الوطن العربي إلى حد نبذ التدين ومحاربته ونعت من تمسك بدينه بالمتعصب ونعتوه في إنتاجهم الأدبي

(١) الميتافيزيقية :أو الماورائيات لفظ لا تيني مركب من (ميتا) وتترجم إلى (ما وراء) فيزيقا) وتترجم إلى (الطبيعة) ويترجم اللفظ المركب كمصطلح إلى " ما وراء الطبيعة" ويطلق للدلالة على الأفكار والتصورات والنظريات والفلسفات التي لا واقع مادي ملموس لها ولا بعد موضوعي، ولا أساس حسي لها، ولا يمكن إدراكها إلا بالعقل التأملي أو التجريدي.

بـ " كـلاب الـدوار" إشـارة إلى المـؤذنين، وأصـحاب الـصواريخ الـتي لا تنطلـق، .إشـارة إلى المـآذن، ومحمـد خـذ حقيبتـك إشـارة إلى رفـض الإسلام...الخ.وهو ما يراه بعض المحللين أسباب جوهرية للعنف الذي انطلق في الجزائر في ثمانينيات القرن الماضي.

وصورة أخرى ضبابية تنعت بـ "الإيجابية" أنتجتها الحداثة المتطورة تحاول أن تدرج الدين – بمنهج تصالحي – كما لو أنه تجربة إنسانية وقوة روحية يمكن الاستفادة منها بوضعها موضع التعديل وإعادة الإنتاج في إطار العقلنة (المهدي ٢٠٠٢ :ص ص ٤٢ – ٤٦) وذوي الاتجاهـات الدينيـة بمـا هـم خاضـعون للقـوة العليـا ، فهـم مـسلوبي الإرادة وصـورة للتقليـد والجمـود والتعـصب والعقـل التصديقي (غير البرهـاني) والتسلط والتشكك والتشاؤم والاغتراب والتزمت والتطـرف...الخ)، وهـي نظـرة نمطيـة فـسرت الإنسان في ظل الـدين والتـدين كمـا لـو أنـه عـديم الإحـساس بذاتـه متميـز بالخـضوع للـسلطة الغيبيـة العليـا تحجـب عنـه إرادتـه وتكفـر بقدراتـه، وهـي صـورة سـلبية تمثلـها الحـداثيون العـرب، وتعـصبوا لهـا (وإن ادعـوا التكييـف) وصـاروا بمحـاولاتهم التجديديـة وفق منظور الحداثة أقرب إلى الهوى والـرأي الشخصي والأمزجة، في كل ما يذهبون، وابتعدوا مسافات عن الأصالة وتفسير السلف، واقتربوا أكثر من العلمـانيين واللائكـيين وفكـر الاستـشراق وحتـى الملحـدين، وتلبـسوا في تفكيرهـم بـسمات الحـداثيين واللائكـيين[1] (اللادينـيين) الـذين نبتـوا مـع استنبات الأفكار الوافدة من الغرب خلال القرن الثامن والتاسع عشر، حيث

(١) اللأئكي:: لفظ يطلق على اللادينيين أو العلمانيين الذين يعتقدون بضرورة فصل الدولة عن الدين، ويرفضون الحكم الديني أو " الحكم بالدين" أو تدخل الدين في شؤون الدولة، ويعتقدون أن الدين شأن فردي لا علاقة له بالحكم. كما يطلق للدلالة على مصادرة ممتلكات الكنيسة لصالح الدولة الزمنية، وحتى الأخلاق عندهم يجب أن تكون ذات مصدر عقلي وتجريبي وتهدف إلى إسعاد الإنسان في الدنيا بدل الآخرة.

تم التحالف – غير المعلن – بين تلك النخب المندهشة وما كان قد تكون من نخب لائكية التحقت بالغرب في فكرها وسلوكها ونضالها، وحولت دينها وأوطانها ولم يعد يربطها بالأمة رابط، فوقعوا بذلك التحالف في المحظور الشرعي والتعصب الحداثي رغم إعلانهم المتكرر بالتمسك بالدين ورموا بالزندقة والهرطقة[1] والكفر.فالعنف الحداثي الممارس على الدين في جل الأقطار الإسلامية وما نشأ من أيديولوجيات علمانية (اشتراكية ولبرالية وقومية) تعمل بعمق في اتجاه إزاحة الدين إلى متحف التاريخ يتباهى به في المناسبات وإقصائه من حياة الناس الواقعية، بل واستبعاد كل متمثل له ملتزم به وبقيمه، من دائرة صنع القرار والمشهد الاجتماعي والسياسي، فكل ذلك لا يمكن تفسيره إلا من حيث هو غلو وتعصب في محاربة الدين من فئة المتأدلجين المعاصرين (المنمطين فكريا)، أنتج بالضرورة عنف مضاد وجماعات مغلقة كثرا ما كانت مقاتلة.

ثالثاً: النظريات المفسرة للاتجاهات التعصبية والغلو في التكفير:

يزخر تراث البحث النفسي الاجتماعي بمحاولات تطوير نظريات سببية، تفسر سلوك التعصب كاتجاه، بعامل محدد أو جملة من العوامل، وقد اختلفت وتباينت بشأن تحديد أسبابها كظاهرة "نفس اجتماعية" فيعود بها البعض إلى أسباب شخصية فردية تتعلق بالبنية النفسية الشخصية،(البيولوجية والمعرفية) كما هو الشأن في نظريات دينامية الشخصية وما تطرحه من عمليات الإسقاط للاندفاعات غير المرغوب فيها على الآخرين، وكذا الإزاحة والتماهي كمفاهيم مفتاحية في تفسير ظاهرة التعصب، ويرجعها البعض إلى أسباب تربوية وتنشئة اجتماعية، كما هو الشأن في النظريات المصنفة ضمن

(١) الهرطقة وتعني الابتعاد عن الدين الأصلي أو النظرية الدينية الأصلية.

التعلم كنظرية التشريط والتعلم الاجتماعي، ويرجعها البعض إلى أنساق قيمية وثقافية اجتماعية عامة، كما هو الشأن في فئة نظريات الصراع بين الجماعات (ريفي حضري، جنسي، طبقي، أيديولوجي، فئوي، ديني، لغوي) حيث يصبح الأفراد منغلقين ومتطرفين داخل التصنيفات الفئوية والهوية الاجتماعية والأنساق الرمزية، ومنهم من يرجعها إلى عوامل مرضية، كنظريات العدوان والشخصية التسلطية ونظرية الإحباط التي تعود بالتعصب إلى التشدد الذي يبديه المربي حيال أخطاء الطفل، فيزيد ذلك من عدوانيته وتصلبه المعرفي والتعبير عنه بالإزاحة والبحث عن كبش الفداء...الخ. أو كالتشدد الذي يبديه المتدين على الناس.

وأما أسباب الغلو في التكفير كما رصدها الكتاب والمهتمين بظاهرة التكفير قديما وحديثا، فتعددت ويمكن تجميعها في ثلاث فئات رئيسية (منها ما هو تاريخي، ومنها ما هو وضعي اجتماعي وسياسي، ومنها ما هو شخصي).

فالأسباب العائدة إلى التاريخ رصدها الباحثون وحددوها في سقوط المرجعية الإسلامية العليا واستمرار الانقسام المذهبي بقطبية حادة يجب ويلغي بعضها بعضا، فبتعدد المرجعيات الإسلامية والفكرية اختفت ضوابط الفتوى وكثر المجتهدون وتعددوا بتعدد الجماعات والمرجعيات الفكرية وحتى السياسية، وتبوأ مكانة المجتهد من دب وهب يصدرون فتاوى من غير علم فيحللون ويحرمون ويكفرون ويدخلون ويخرجون من شاءوا من الإسلام والإيمان متجاهلين بذلك ما حدده العلماء من قواعد التكفير، كقاعدة الشهادتين، والتوحيد، والالتزام بالإسلام، وقاعدة عدم تهديم الإيمان بالكبائر، وأن ما عدا الشرك هو تحت إمكان المغفرة، وأن الفرد يمكن أي يجمع بين الكفر والنفاق والإيمان، وأن الأفراد متفاوتون في درجة الطاعة

والإيمان، وأنه لا يجوز التركيز على النظر في الأطراف دون إدراك الوسط فنسقط في مقولة أن الإنسان إما مؤمنا خالصا أو كافرا خالصا. (بوقرين: ص ص ٢٧ – ٤٠). فلا شك أن الخروج عن هذه القواعد وعدم استحضارها في أي حكم من الأحكام تسقط صاحبه في التكفير والمغالاة والتعصب برؤية العالم (أسود وأبيض، كافر ومؤمن). حيث يسقط في الجهل وإتباع الهوى والاستهانة بمحارم الله، وتقليد المذاهب الضالة، ولم يتردد علماء أهل السنة والجماعة في نعتهم بأنهم قوم يكفرون من خالفهم الرأي ويمتنعون عن طاعة أولي الأمر ويستحلون منه ما لا يستحلون من الكفار (وهف القحطاني: ص ص ١٧ – ١٨):

أما ما هو وضعي اجتماعي وسياسي من الأسباب، فنقرأه اجتماعيا – كما وردت في كتابات المعاصرين وبحوثهم – في ما يعانيه المجتمع من المظاهر السلبية والإخفاق الشامل تبعث على اليأس والإحباط في الإعلام والسياسة والتربية والاقتصاد والعلاقات الاجتماعية، وكذا انتشار البدع والزهد في الدين، وحدوث طفرات التغير الاجتماعي غير المنظم، وضعف القيم، والتحلل الأخلاقي وكذا انتشار المنكرات وما يعتقد أنه ردة اجتماعية، وكذا الفراغ الديني المتعمد في صياغة مناهج التعليم وتكييفها وفق مقولات الغرب في العلم والمعرفة، والتي لا تخلو من لوثة الإلحاد واللائكية(اللادينية)، ذلك إضافة إلى انتشار الفقر والمرض والتوزيع غير المتكافئ وغير العادل للثروة وانتشار العصبية والفئوية وما نتج عنه من استبعاد اجتماعي...الخ.ونقرأه سياسيا – في تلك الكتابات – في ما يعتقد في شيوع الحكم بغير ما أنزل الله في الدول الإسلامية، وعدم تطبيق الشريعة، واستبداله بالحكم العلماني المتطرف، وبروز الأفكار اللائكية، وتجفيف مصادر المعرفة الدينية في بعض الدول، وما نتج عنه من مصادرة للحريات

واضطهاد الدعاة لله وفرض الرقابة على دور المسجد والمدارس الدينية والتمادي في نشر العلمانية والولاء لغير الله، وطاعة الكفار والمشركين والإقتداء بهم وإبرام المعاهدات معهم والتفريط في مقدرات الأمة ووضعها بيد الكفار والمشركين.

أما ما هو فردي وشخصي من الأسباب، فتعود كما رصدها الدارسون للتطرف الديني إلى الإحساس بنقص في الإشباع الديني وضعف التفقه في الدين، والجهل بأصول الشريعة، وانهيار الثقة بالعلماء لدى الشباب، وانفصالهم عنهم وتعميق الفجوة بينهم، وبروز تحكيم الأهواء والتعالي والغرور، وتحكيم العاطفة وتغييب العقل وتعزيز ثقافة تحدي الخصوم، والتقليد الأعمى والتوريث للمذهبية، وانتشار الفهم الخاطئ للشريعة وأخذ العلم عن غير أهله، وإتباع الشبهات، والخلط بين الشريعة وأقوال العلماء، وقلة الصبر وضعف النضج الفكري والديني...الخ (الطرفاوي: ص ص ١٩ – ٢٢). فهذه كلها تكاد تكون مواصفات ثابتة في شخصيات التكفيريين كما يعرضها الدارسون.. ومن ثمة فهي تطرح كما لو أنها أسباب شرطية مباشرة مرتبطة بالغلو في التكفير، ولكنها قد يحضر من الأسباب ما هو شخصي عند فرد أو جماعة كشرط مباشر، بينما قد يحضر ما هو اجتماعي وسياسي كشرط مركزي عند آخرين، ويحضر ما هو تاريخي عند البعض الآخر، وقد يحضر جلها أو بعضها، فهذه الشروط والأسباب مرتحلة في ترتيبها بحسب الظروف وأحوال التكفيريين والمتعصبين.

ولتجاوز هذا التشظي والتعدد غير المتناهي في الأسباب، بسبب تنوع الظاهرة وتعدد وضعياتها حاول بعض الباحثين رؤية هذا الاختلاف وتجميعه في مناحي محددة، كما سعى إلى ذلك " ألبورت" وميز ست مناحي تفسر السلوك تكاد تكون شاملة لجميع النظريات التي ذكرت وهي (المنحى التاريخي،

والاجتماعي، والموقفي، وديناميـة الشخصية[1]، والمنحى الظاهري، ومنحى موضوع التنبيه) إذ أن التعصب في نظره لا يخرج عن هذه الأسباب كإطار مرجعي لتفسيره.(معتز ١٩٨٩: ص ص ٩٩– ١٠٠).

١ – مقاربات متباينة للاتجاهات التعصبية والتكفيرية:

تطرح الاتجاهات التعصبية والتكفيرية على المستوى الفكري المجرد الأقرب إلى الفلسفة، كما لو أنها مشكلة تتعلق بعلاقة الأنا والآخر، وما ينتج عنها من صيغ قطبية حادة، وجدلية تناقضية، واستيعاب وتعالق وتكامل...الخ فقد تظهر في وضعية اللامتناهي من الانفصال والتباعد، كما قد تظهر في اللامتناهي من التقارب في صيغتها الجدلية، حيث أن الخصمان المتباعدان والمتناقضان في طريقهما دوما إلى التصالح وإنتاج الوحدة.(بنعبد العالي ١٩٩٩ :ص ص ٣٦ ـ ٣٧). ولكنها وحدة صراعية إن صح التعبير أي ناتجة عن استيعاب الواحد للآخر المنافس وإنهاء وجوده. فالمتعصب منفصل دوما وفي كل الحالات عن الآخر ويسعى لهدم كل علاقة اتصالية من شأنها أن تحد من تميزه عنه، ومتصل به على وجه رفضه ومقارعته وعدم السماح له بالظهور ويجحده في كل تجل من تجلياته أو ليلغيه ويستوعبه في نسقه ومنظومته الفكرية.وما يجريه المتعصب من علاقات انفصالية وتواصلية بالآخر من موقع الهامشية، يجريه التكفيري من حيث أن التكفير هو الآخر مفهوم لعلاقة مضطربة بين الأنا (كمحتوى عقيدي داخلي) والآخر (كمحتوى الشيء خارجي مضاد).

١ – ١ المقاربات الفلسفية للتعصب والتكفير.

والمقاربات الفلسفية والميتافيزيقية لمسألة التعصب تعود بنا إلى ظاهرة

(١) ديناميـة مصطلح فيزيائي في لصبه ويعني الحركة. ويطلق هنا للتعبير عن التغيرات والتحولات التي تطرأ على الشخصية.

القطبية، من حيث هي وعي وتميز بالأنا، تنشطر به حياتنا إلى الأنا والأنت، أو الأنا والآخر، أو نحن وهم...الخ وفي الصيغة التكفيرية ينقسم إلى أنا المؤمن، والآخر الكافر) فيضع كل قطب حدوده الصارمة ويتماهى معها كهوية بشكل يجعله وكأنه في حالة تضاد مع الآخر المختلف أو الكافر، ويعجز عن إدراك تكامله مع الآخر أو حاجته إليه ولو كان كافرا، إذ لم يستطع أن يدرك المؤمن المتعصب والتكفيري من أن الإنسانية قسمان (أخ في الدين وأخ في الإنسانية، أو كما قال علي رضي الله عنه) فيدرك أن الكافر من حيث هو إنسان أخ للمؤمن وينشطان على محيط دائرة واحدة (الإنسانية) ولا يدركهما إلا وهما متضادين ومتصادمين، ويسعى كل قطب في وضعية الانشطار – من حيث هي أضداد – إلى إلغاء الآخر وإفنائه. فعقولنا كبشر إنما هي ذات وعي قطبي، تدرك العالم في قطبيته كأجزاء ومواضيع منفصلة عن بعضها البعض، فندرك ذواتنا منفصلة عن الآخرين كما ندرك الصورة في غياب إدراك الخلفية. وهو الأمر الذي أدى إلى فردية ناقصة، فالفرد لا يكون مكتملا في فرديته إلا بوجود الآخر في نسقه الفردي، وهو ما يفتقد في تصورات كل من المتعصب والتكفيري ويعدان ناقصي الفردية، ومن نقصت فرديته نقص فهمه للآخر والمحيط.

١ – ٢ التكفير والتعصب في التحليل النفسي:

بداية يجب التذكير بأن الدراسات السيكولوجية حول التعصب – التنظيرية منها والأمبيريقية (التجريبية) – لم تنفصل في أصلها عن مفهوم يتعلق بالتعصب الديني، ولو أنها شملت وتوسعت بعد ذلك لكل تعصب أيديولوجي (فكري) أو عرقي قومي...الخ كما نذكر بداية على أن العلاقة بين علم النفس والدين تأسست منذ البداية مضطربة أحيانا وعدمية أحيانا أخرى، عبر القرنيين الماضيين وطرحت على مستوى الصحة النفسية ومظاهر

الاكتئاب والانتحار والاضطرابات العصبية والأمراض الذهانية، فلم يبرئ علم النفس الدين كسبب جوهري وراء تلك الأمراض، رغم كشف الكثير من البحوث الطبية والشرعية كما هو مشاع ذكره في كتب الصحة النفسية والطب النفسي عن وجود علاقة إيجابية بين التدين والصحة من خلال مؤشرات التكيف والمواطنة والقوة النفسية والسعادة والرضا والتقبل والتوافق والعزة...الخ.(كويلو ٢٠٠٩.ص١).

وقد برر التحليل النفسي تدخله في تحليل ظاهرة "التعصب الديني وغيره "بما يراه إخفاق للرصد الفينومينولوجي[١] – فلسفة البحث عن المعنى للظواهر ـ لظاهرة التعصب من حيث هو رصد مظهري، فهو من العمق والتعقيد ما يجعله مستعصيا عن كشف ما هو مستتر في أغوار النفس، حيث يبدو التعصب مستمرا في أكثر من مظهر سلوكي، حتى ولو زالت أسبابه الظاهرية. (هانيال ١٩٩٠: ص ص٧ – ٨) فحوادث اختفاء أسباب التزمت الديني من حيث هو مظهر من مظاهر التعصب كما هو مشاع في علم النفس، لم يصاحبه مع تلك الحوادث اختفاء للتعصب كما يعرف على أنه أحكام قيمية متسرعة كما هو الشأن في إطلاق أحكام الكفر، والإمتثالية أو المثلنة الفكرية كما هو في التعصب الأيديولوجي. وهو ما يعني وقوف أسباب جوهرية قوية أخرى خفية يسميها علم النفس التحليلي بـ "اللاوعي". ومن ثم سعى للكشف عن ما هو مستور في اللاوعي من الأسباب حتى يصبح ما كان "الهو"[٢] هو " الأنا " يخضع للتحليل والرصد العيني.

(١) الفينومينولوجي PHenomenologie وتترجم إلى الظاهراتية وتعني "الإنسان حين يبحث عن تفسيرات لتجاربه في الحياة بحيث يعطي لها معنى من خلال إدراكاته وقدراته العقلية ومزاجه وتصوراته الذاتية...الخ فيصبح كل الوجود عنده له معنى، أي هي فلسفة البحث عن المعنى للوجود، المحيط بالإنسان.

(٢) الهو (الضمير الغائب) يعبر به في التحليل النفسي عن اللاشعور وهو القسم الأكبر من النفس.

ويرجع علم النفس التعصب – بنبرة لا تخلو من التعصب والغلو ضد كل ما هو ديني أو اجتماعي أو حضاري – إلى البنية النفسية الفطرية للفرد وما ينشأ عنها من صراع، فالرغبات التي تولد مع كل طفل سوف تعاني – في نظر منظري التحليل النفسي ـ من الحضارة والثقافة، وسيتحول الكثير منهم إلى لا اجتماعيين وعصابيين متعصبين، حيث أن التجاور بين غريزة الحياة والموت محاطة بـ "مثل وقيم هشة" من إنتاج الجماعة والعقل الجماعي والحضارة، لا تقوى على منع العدوانية من حيث هي نزوة طبيعية متأصلة تجعل الإنسان الفرد – من حيث هو أقرب إلى رئاسيات حيوانية أخرى في سلم التطور ـ متعارض مع الحضارة والثقافة، بل إن علماء التحليل النفسي يعتقدون بأن الحضارة بما هي فعل يتجه نحو توحيد الناس في كتلة متراصة بروابط وثيقة لا تستطيع ولن تستطيع إلا بالتوطيد المتزايد لشعور الجرمية، من حيث هو انبعاث مستمر من مجال واسع من اللاوعي الجمعي أودعت فيه الحضارة عبر الزمن ما شاءت من غرائز الهدم. (هانيال ١٩٩٠: ص ص ٣٩ – ٤٠).

وينطلق علم النفس الحديث من مسلمة أن عصرنا ونمط حياتنا الجماعية المشكلة في تكتلات فئوية وجمعوية وأيديولوجيات قسرية، وإثنيات تعصبية وسعت وأغنت الأسباب المنتجة للتعصب والتي تنتج هي الأخرى التكفير في المجال الديني، فما كانت القبيلة قديما وما كانت الطاوية والكونفوشيوسية (نسبة إلى كونفوشيوس) والبوذية وحتى الأفلاطونية تنتجه من تعصب وفروض طاعة، صارت بقوة التكرار تنتجه (الكنيسة، والهتلرية النازية، والموسولينية، أستالينية،و الماركسية اللينينية، وحتى الجمعنة الصناعية...الخ. فما توهمه الأيديولوجيون (المتعصبون)من أنهم قد اكتشفوا الحقيقة والمطلق، جعلهم – من حيث يدرون أو لا يدرون – في موقع العصمة والتفوق على البشر، فهم يعتقدون مطمئنين – كما يعتقد المتزمت

الـديني ويطمـئن – مـن أنهـم جماعـة اصـطفاها التـاريخ (علمانيـة ودينيـة) ويعتقـدون بـصحة مقـولاتهم وصـحة انتمـائهم، ممـا يجعلـهم يطلقـون أحكـام عدوانيـة (الـتكفير، والتـسفيه والتتفيـه) نحـو كـل مـن خـالفهم ويجهـدون أنفسهم لفرض آرائهم عليهم، فصاروا بذلك ذهانيين من حيث أنهم صنعوا لذواتهم واقع خاص مناقض لما هو مألوف (هانيال ١٩٩٠:ص ص ٩ – ١١). والجماعة المتعصبة بطبيعتها هي مركز الجاذبية للشباب، بما تمنحهم من الأمن الشخصي والأمان المعرفي ونرجسية الذاتية عالية، ذلك أن الحاجة إلى المثلنة كما يعتقد "يونغ" تنبعث من نقص أساسي في المثل، وهي التي تدفع إلى الاصطفاف مع المصطفين وذلك هو أساس التعصب.(هانيال ١٩٩٠: ص ٣٤).

وصـورة المتعـصبين في التحليـل النفـسي كمـا يقـسمهم "بـولترويـر" إلى أصـليين، وتـابعين منقـادين، تبـدو أيـضا نمطيـة وسواسـية شـديدة الإمتثاليـة والانقيـاد نحـو التغلـب علـى"الأنـا الأعلـى"باسـم فكـرة "الـوثن الميتـافيزيقي الطوباوي"[1] فيسوغون لأنفسهم الخروج عن الأعراف من أجل ما يعتقدونه أنه فوق الأعراف يستحق التضحية بالنفس وبالآخرين، ويشبعون بذلك رغباتهم دون أي شعور بالذنب حتى في حالة القتل، فهم يقتلون – كما يعتقدون – من أجل خير الإنسانية أو في سبيل اله، وبشجاعة وتفان، من حيث هي اعتقادات وأحاسيس نبيلة، ولكنها – في الفحص النفسي – كاذبة وخادعة لأن ذلك – كما يفسرها علم النفس – مجرد إحساس بـ "جنون العظمة" ناتج عن انكسار للواقع وعدم الاقتدار على تحمل القواعد المستنبطة من الأنا الأعلى، كما هو الحال في فساد الأنا الأعلى في وضعية الأب الضعيف والمتساهل الذي يتيح الفرصة بتفريط وإفراط، أمام الطفل ليكون لنفسه "أنا أعلى" قاسي

(١) الطوباوية: مصطلح مأخوذ من Utopianism وتطلق على الأفكار المثالية أو البحث عن الأمثل الذي يتعذر تطبيقه واشتهرت جمهورية أفلاطون ويوتوبيا توماس بذلك وتعني اليوتوبيا المدينة الفاضلة..

(هانيال ١٩٩٠:ص ص ١١ – ١٣). فهم أي المتعصبون والتكفيريون) أولاد بلا آباء كما وصفهم "بيكر" من حيث هم روافض للموانع الاجتماعية للوصول إلى الإنعتاق من النظام (القوانين) فالعزلة الاجتماعية التي يكون عليها المتعصب هي رهبنة تعبدية وتمرد عن القانون في نفس الوقت، فهم في حالة انفعال دائمة ضد المحيط، مما يجعلهم – حين اليأس – أكثر حنية للموت والانتحار سواء تعلق الأمر بالمتعصب والمتزمت أو بالتكفيري (التقرب إلى الله بالقتل).والعقلية التعصبية إن هي في التحليل النفسي والأنثروبولوجيا[1] إلا تلك الوضعية الفردية الناتجة عن التابو والطوطم[2]، من حيث هما منشأ الحياة الدينية والقيم والأخلاق وكل ما ينتسب إلى الأنا الأعلى، ولذلك فلا يتردد المحللون من اعتبارها حالة نكوص وتراجع إلى العقلية الأرواحية "animiste" (هانيال ١٩٩٠:ص ص ٢٧ – ٢٨). فهذا التناول السيكولوجي البعيد عن الدين يقود إلى أن ظاهرتي التكفير والتعصب (السلبيين) ظاهرتان سيكولوجيتان تتطلبان التدخل على مستوى العلاج النفسي ابتداء.

وعلم النفس المعرفي يروي لنا قصة أخرى عن المخ المنشطر على نفسه يمكن أن تؤسس لمعرفة أصل التعصب للرأي من حيث هو هيمنة نمط معين من السلوك ترفض أنماط أخرى، فالهيمنة تعود إلى انشطار المخ إلى نصفين

(١) الأنثروبولوجيا يطلق للدلالة على الدراسات العلمية لسلوك المجتمعات بدائية كما يترجم على علم سلوك الإنسان.

(٢) التابو: Tabou كلمة بولينيزية شاع استخدامها في اللغات الأوروبية في المجال العلمي لا سيما في علم النفس التحليلي، وتعني " الحرام " أو الشيء المحرم والمقدس الذي لا يقبل أن يدنس ولا يمكن تجاوزه وعادة ما يقرن بالمخوف الذي لا يقترب منه. والطوطم، مصطلح أطلقه فرويد ليرفض به غيبية الأديان، ويؤسس لسيكولوجية الأديان، أو تحكم القوى الغيبية في تصرف الإنسان، ويطلق على كل من له صلة بالاعتقادات الغيبية التي يبتدعها الإنسان وينقاد إليها خوفا. ومنه عمم المصطلح في التحليل النفسي بشكل مبالغ فيه ليعبر به عن كل القوى الغيبية التي يعتقد الإنسان أنها مصدر للضمير والأخلاق والحلال والحرام...الخ.

كروبين (أيسر وأيمن) يعمل كل واحد منهما مستقلا عن الآخر رغم التبادل الحثيث للمعلومات بين النصفين، بواسطة ما يعرف بالجسم "النفثي" حيث يهيمن نصف كروي مخي على سلوك الفرد، والصورة المألوفة عن عالمنا اليوم هي صورة خاصة بنصف الكرة المخي الأيسر، وهي مجرد هيمنة وجهة نظر أحادية تؤله العقلانية والتحليل وما هو ملموس ورقمي، ولا وجود ولا اعتراف سوى للظاهر، والوجود السببي والزمن، وتبقى الصور الأخرى العائدة إلى نصف الكرة المخي الأيمن لا واعية، موصوفة بالغيبية والكلية غير القابلة للتجزيء وفوق الإدراك الحسي. فعقولنا تفكيكية تتموضع في الأنا والضد فتنفي بذلك بعضنا البعض لأن الأضداد في طبيعتها تنفي بعضها البعض (المؤمن يلغي الكافر). والإنسان القطبي إن صح التعبير يكرر ويعيد الفشل المعرفي بنفس الدرجة التي يعتقد فيها باكتمال ذاته وأفكاره وتصوراته من حيث أن ذلك تغذية للقطب على حساب القطب الآخر من حيث هو زوج لا يكتمل إلا بالاثنين، وهو ما يقتضي الإقلاع عن التحيزات عبر توظيف البصيرة وإدراك ضرورة الآخر مهما بدا لنا في صيغة التضاد.

ونجد أنفسنا مضطرين في هذا المقام أن نشير ولو على عجالة إلى إمكانية تفنيد هذه النظرة الصراعية للوجود، ذلك أن القطبية من المنظور الإسلامي ليست حالة من الانشطار وتحديد للأنا والتمركز والتماهي مع تلك الحدود لإنتاج التضاد والصراع ونفي الكل للكل كما هو في مقاربات الفلسفات الشرقية، فهي أيضا صورة لاستقلالية الذات عن الموضوع وإمكانية المعرفة، فالذات تنزع لمعرفة الموضوع لإنتاج المعرفة والتوق نحو الاكتمال باستمرار سواء على مستوى علاقة الذات بالذات الأخرى أو علاقة الذات بالأشياء وعالم الأفكار، ومنه اقتضى ضرورة الوعي بالاتصال بالآخر من أجل الاكتمال لا بمفهومه البوذي الذي يعني الفناء في الكل (النرفانا) ولا بمفهومه المسيحي (

أنا وأبي واحد) ولكن بمفهوم الزوجية: ﴿ .. قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [1]. فالمعرفة كما هو معروف عند أهل المعرفة غير ممكنة إلا في حالة انشطار الوضع الوجودي إلى "الذات والموضوع" وإلى "عارف ومعروف" لأن الموضوع والمعروف يوجدان خارج الذات فتتوق النفس إلى معرفتهما في تغيرهما دوما وعدم استقرارهما وعدم ثباتهما على حال، ومن ثم فالرؤية الإسلامية تدرج التعصب للرأي لا باعتبارها حالة سيكولوجية معزولة ولا هي نتيجة انشطار العقل بقدر ما هي حالة تثقيف العقل بثقافة أنا خير منه، وهي الثقافة التي تجعل السلوك الفردي إن هو إلا مظهر وتجلي سيكولوجي للفرعونية والقبيلية (قابيل) تقابل الموسوية والهبيلية (هابيل) إن صح التعبير، وأن مبرر وجود الأضداد (الخير والشر) بغرض الاختيار والتفضيل في نطاق سنة التدافع بما يمكن أن نسميه ممارسة الحوار الديالوجي (الحوار مع المختلف أو الجدلي) الذي يتجاوز. (صيغة الحوار مع الذات (المنولوجية) وأن حوار الآخر المضاد هو من يبعد التعصب والتقوقع في الحوار المنولوجي، ويوسع من مفهوم الانتماء والوطنية، فالقول الذي ينسب لـ لـ "ربعي بن عامر" الذي وجهه لـ "رستم" والذي يفيد ما معناه (جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) [2] (٢٩ : ٧) يعد أرقى حالات الخروج عن دائرة التعصب وأبلغ من أي قول يفيد ويؤمن أوسع فضاءات الحرية.

١ – ٣ مسألة التعصب والتكفير من المنظور الوضع العولمي:

من يحدد لي كيف أعيش ؟ هو السؤال الذي طرح نفسه في المأزق الحداثي، وانبرت للإجابة عنه كل الأفكار والمشروعات التي طرحتها العولمة

(١) هود. الآية ٤٠.

(٢) بن كثير. البداية والنهاية. ص ٣٩. المكتبة الشاملة. الإلكترونية.

ومفكري المابعد (هبرماس ٢٠٠٦ :ص ص ١٩ – ٢٤) وهو سؤال اقتضى استدعاء كل التجربة الإنسانية في الحداثة والمأسسة إلى المساءلة الفلسفية المجتمعية في ضوء فلسفة تفكيك السلطة والقوة والعقل الثقافي، بما يجري من رقمنة معلوماتية للعالم في كل تجلياته، ونقل الفرد من أطره الثقافية وتحيزاته الاجتماعية والدينية إلى الفردية العالمية، فالعقل الحداثي قد أنجز مهمته في مقاربة العدالة والتاريخ والمساواة...الخ وانتهى إلى اللاعقلانية من حيث هي تعصب وتمركز للأنوية الثقافية الزائدة، يجب التخلص منها. وهو ما نعتبره إصرار حداثي آخر متطرف نحو إنتاج الأحادية وفق منظور الحاجات البيولوجية والاستجابات الحيوية (الهوميوستازي الحيوي)[1].

فالعولمة من حيث هي شكل متطور من الفردانية طرحت أوضاعا وقناعات جديدة تقوم على تفكيك الأنساق والهويات الثقافية والدينية (الإنسان الثقافي) وحتى تلك الأنساق الموصوفة حداثيا بالعلمية (الوضعانية، الماركسية، الفرويدية، الداروينية الدوركايمية...الخ) انطلاقا من أن تلك الأنساق إن هي إلا صناديق مغلقة مكبلات للعقل والمبادرة والفردية، يجب تجاوزها وتخطيها، وعليه توصي أدبياتها في التكييف التدريجي مع الوضع العولمي، بتحرير الفرد من انتماءاته الجاعية الضيقة، ومساعدته على وضع ذاته موضع الاختيار الحر من عدة بدائل، فيختار دينه وشكل تدينه، وفئة انتمائه ولغته وفكره وسبل عيشه بكل حرية، إنه عالم السوق وتحويل الدين إلى سوق متعددة، وعليه ينصح العوليون بتحرير الفرد لـ "يختار"، فمن حق الفرد التجنس ومن حقه الكفر ومن حقه الإيمان ومن حقه اختيار الثقافة والأيديولوجية والعمل وطريقة عيشه، فلا أحد ولا جهة يحق لها أن تختار في مكانه طريقة عيشه،

(١) مصطلح في علم النفس يطلق للدلالة على الإستجابات الناتجة عن الحاجات الأولية (البيولوجية).

تلك هي عقيدة العولمة وهي حرية الكفر يجري تسويقها عولميا باسم حرية الفكر. فالتنقل عبر النماذج الدينية وصيغ التدين هو وضع في الاتجاه الصحيح في نظر العولميين يعزز حرية الفرد في التدين، ويقضي على التزمت الفكري والجمود الذهني والتعصب المذهبي، ويحرر الناس من آفة التكفير، إلا أنه في الحقيقة هو حل تكفيري بطريقة أخرى، حيث أن الطريق العولمي كما هو مطروح تربويا يضع الفرد – في وضعية علاقات اللاتكافؤ الثقافي وغياب الحصافة الفكرية – في الطريق نحو الكفر ولا يرى غير الكفر من حيث هو كفر بالدين أو بالآخر في سبيل فرديته العليا المزعومة. ولاشك أن الوضع العولمي الآن يتماهى أشد التماهي مع التعصب والاتجاهات التعصبية كيف ما كانت، فالعولمة كما هي في مشروع القوي المهيمن هي مشروع للإطاحة بالهويات المثمرة كما يقول المفكرون ويسعى إلى بعث الهويات القاتلة والمتقاتلة (العشائر، القبائل، الإثنيات العرقية واللغوية، الطائفية، المذهبية الدينية، الأيديولوجية...الخ

١ – ٤ التعصب الحداثي والتكفير الديني في المقاربة القطبية الأيديولوجية:

ترجع المقاربات الأيديولوجية المشهد التعصبي والقطبية الحادة في التفكير والفكر والمنتشر في العالم الإسلامي، إلى طريقة مقاربة سؤال النهضة والحداثة وسؤال الأصالة والتدين[1]، وهما سؤالان واجها الأمة ـ عقب التحرر الجغرافي العسكري – كتوتر على المستوى الفردي والاجتماعي والسياسي،

(١) نريد بـ " التدين" في هذا المقام ليس بمعنى مجرد الممارسات التعبدية الخاصة بالفرد، بل نعني به كل ما يتعلق بالممارسات الفردية والمشاريع الاقتصادية والتربوية والاجتماعية والإعلامية والقانونية....التي تمارسها الدولة أو المجتمع أو الفرد أو أي هيأة، بحيث تكون مصدرها فهم خاص بالنص الديني وناتجة عنه.

إذ تم التعاطي مع الحداثة والتحديث في إطار بناء الدولة القطرية وكأنها حتمية وقدر محتوم للنهضة، وهي بمنزلة النظرية العامة لها ونموذج قيمي معياري خاضع لمنطق التسليم والتعميم والمثال والقدوة ويقوم في أدبياته على الحرية والعقلنة في السلوك والتفكير، وتنظيم العلاقات (العقد الاجتماعي والمواطنة) وتقنين العلاقات في صيغة العقلنة، والشمولية "التقنين والمأسسة"[1] لكل ما يمس التنمية المجتمعية، تلك هي المرتكزات التي قامت عليها الحداثة في كل التجارب القطرية(الغربية والشرقية، الشمالية والجنوبية). (هانيال ١٩٩٠: ص ص٣٨ – ٣٩). وفي الوقت نفسه تم التعاطي والتعامل مع سؤال الأصالة والتدين، كما لو أنه سؤال القداسة والتجمد الفكري والخلود والثبات والماضوية وتغييب للعقل والمبادرة والحرية والتفكير في المستقبل، فاستبعد الدين والتدين من منظومة الشأن العام، واختزل التدين عند متعصبي الحداثة كما لو أنه شأن فردي والنظر إليه وكأنه خطيئة فردية تقتضي الخلاص بالمفهوم المسيحي الحداثي، وبمفهوم التحليل النفسي هو نتيجة "الوهم الديني". وبذلك انغلق الحداثيون – في ضوء هذا التفسير ونمطية الرؤية الحداثية – على حداثيتهم منمطين في قوالب فكرية يمكن أن نطلق عليهم اسم "أصوليين أو حداثيين" متموقعين في علاقة عدائية مع كل دين أو تدين باعتباره (الآخر) الخطر على الحداثة.

ومن الطبيعي وتبعا لقانون "لكل فعل رد فعل" تخندق المفكرون الإسلاميون المعاصرون المنضوون تحت لواء الجماعات المغلقة في الطرف الأقصى، واحتموا بالدين وتدثروا بالنص المقدس وتمسكوا به كهوية عليا مقدسة وتماهى الكل (كيان الجماعة) معه، حتى بدا لهم ما أنتجوه من

(١) يعني بالمأسسة هنا وضع العلاقات ضمن قوانين المؤسسة.

فهومات وتفسيرات للدين وما طوروه من أنساق فكرية ورؤى شديدة المنطقية الرياضية والنمذجة المعيارية، هي الدين ذاته، إذ انغلقوا في ما أنتجوه من نصوص كما لو أنها هي نفسها نصوص مقدسة، بل أن تعصبهم ساقهم إلى الابتعاد أو تهميش النص المقدس، فقدسوا أنفسهم من حيث لا يدرون وصارت نصوصهم من (الفتاوى، والأحكام، والأفكار، والآراء) كما لو أنها نصوص وأقوال مقدسة ما دامت تستند إلى المقدس في معانيها ودلالاتها. وكل خارج أو مناقض لها هو "آخر "خارج عن جماعتهم، بل وخارج عن الدين ومارق عنه، حتى ولو كانت قراءات وتفسيرات أخرى من جنس التفكير الديني (النحن) وبذلك اختلط عندهم التراث وأشكال التدين بالدين ذاته وتساوت عندهم نصوص الإنسان التفسيرية مع النصوص الأصلية المقدسة (القرآن والحديث). والحداثة والفكر الحداثي هي الأولى بعدئذ عندهم بالرفض المطلق باعتباره الآخر المعادي، حيث بدت الحداثة عندهم وكأنها مروق عن الدين يكفر كل متمثل وممتثل لقيمها التي ذكرت لاسيما العقلانية منها.

وفي ضوء هذا المشهد العدائي الشديد الاستقطاب والنمطية، أعيد تنميط الشخصية الإسلامية لدى القطبين وفق هذه الثنائية والقطبية الحادة المغلقة على ذاتها، إن على مستوى الحداثيين عبر الخطب التعبوية الحزبية والقوانين والتربية والتعليم المدرسي والجامعي، وإن على مستوى الجماعات الإسلامية، عبر الخطب المنبرية والتربية الأسرية والتنشئة الاجتماعية والثقافية، فمست القطبية الحادة بعمق طرق التفكير في المجتمع الواحد، بل وعند الفرد الواحد، حيث إنتاج وافر للتصلب المعرفي الثنائي المنفصل، الذي لا يقبل الانفتاح على الآخر ولا المناقشة ولا حتى القبول بمحايثة للنص. فنمت الاتجاهات التعصبية في الاتجاهين يتباعدان في سيرورتهما عن الوسطية إلى حيث التصادم والعنف. فآل المشهد في انتقال مرعب من التعصب الفكري

الحداثي إلى التدمير والإقصاء والتسلط والاستبعاد الحداثي، ومن التعصب الديني إلى التكفير والعنف والتفجير كما هو حاصل اليوم.

١ – ٤ – ١ القراءة الأخرى الممكنة للحداثة والتدين:

وفي ضوء هذا التصلب المعرفي في الاتجاهين المتعاكسين لم يعد لفرصة القراءة الأخرى لكل من الحداثة والدين ممكنة في التجربة الماضية، وحجبت كل البدائل وطمست وغيبت كتغييب الكافر للإيمان. وعند إزالة الحواجب وتأسيس الانفتاح على القراءة الممكنة، والتحرر من المواقع العدائية والسلبية والمفاهيم الغربية المضطربة عن الدين والتدين والحداثة، تقودنا أو تكشف عن فروق جوهرية بين الدين في الإسلام من حيث هو مضمون النص المقدس الواحد الصادر عن إله مطلق لا يقبل التعدد ولا المحايثة في ذاته، وهو نص منزه في معناه وشكله وخالد ثابت، يشكل الإطار المرجعي العالي وهو الحكم غير القابل للتجاوز، وأن التدين في الإسلام هو ذلك البعد الإجرائي للدين يتمثل في السلوك الديني والمشاركة (المرتفعة، أو المتوسطة، أو المنخفضة) في الأنشطة الدينية والالتزام بعقيدة الإيمان الصحيحة بما يحقق عبادة الله الواحد بالتصديق القلبي والإقرار باللسان والسلوك الجوارحي، ومن ثم فالتدين تجربة ناتجة عن محايثة للنص المقدس وفهم خاص له، نتج عنه صيغ متعددة في السلوك التعبدي وإنتاج مشاريع التنمية في الاقتصاد والسياسة والتجارة والقانون والعدل والتربية والإعلام...الخ ويعود التنوع والتعدد في إنتاج صيغ التدين كتجربة إنسانية إلى تعدد أوجه الدين ذاته (عقيدة، شريعة، معاملة، أخلاق،) وتعدد الثقافات والجماعات وتباين في الإدراك والمدركات، واختلاف وضعيات وتجليات الظواهر ونسبيتها.

وبموجب هذا التنوع والتعدد أوجب إدراج التدين كما لو أنه تجربة بشرية عقلية قابلة للمراجعة من حين لآخر، ودونها تجارب أخرى مماثلة من جنسها

ومن خارجها، شديدة التنوع كـ(تدين فكري، تدين وجداني عاطفي، تدين العادة، التدين النفعي المصلحي، التدين الانفعالي، الدفاعي، الذهاني، الوسطي، المتطرف، تدين صحيح، تدين خاطئ...الخ) (المهدي ٢٠٠٢: ص ص ٣٣ – ٣٩) وعليه فإعطاء النص الإنساني المحايث والمتعدد(التدين) نفس القداسة والخلود والتعالي التي للنص الواحد المقدس (الدين) هو ما نعده مشكلة وتعصب، يمكن أن تؤدي إلى تأليه العقل ذاته كما هو حادث الآن في كل أشكال التعصب الديني أو الحداثي على حد سواء.

ومثل هذا الخلط في الدين والتدين حدث أيضا بين فكر الحداثة والتجربة عند متعصبي الحداثة، فقد كشفت القراءة عن فروق جوهرية أيضا بين الحداثة كنموذج معياري نظري، وبين التجربة كفهم خاص وكممارسة مجتمعية نسبية تقرأ حسب السياقات الواقعية في نطاق العلاقات الاجتماعية.

ومن ثمة فكل من الحداثة كفكر معياري نموذجي والدين كنص مقدس قد تعاطى معهما الإنسان بالقداسة والحفظ كما وردا، وبالتحيين والمحايثة والأقلمة[1]، حيث وضعا في نطاق التجربة الإنسانية، يمكن رؤيتهما كما لو أنهما تحديث وتدين وفعل بشري، لا يخرجان عن نطاق ومجال الإرادة الإنسانية والاجتهاد غير المنزه المعرض للخطأ والصواب، إلا أنهما يتأسسان – في نطاق الدين الإسلامي – على منظومة القيم والتحرر من جميع أشكال العبودية المجتمعية وإدراك الحق في الاختلاف وتحمل المسؤولية الأخلاقية: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[2] فالفهم الخاص للنص ومحايثته حق، تضمنه حرية الاختيار والتكليف، ينطوي على حق الآخر في مراجعته وانتقاده

(١) التحيين والمحايثة والأقلمة تأخذ هنا تقريبا نفس المعنى والمقصود منه تكييف المصطلح وتلبيسه معاني ودلالات الموجودة في الحين وفي الإقليم وبحيثياته الآنية وفي الحين.

(٢) سورة المدثر.الآية: ٣٨.

أو إعادة إنتاجه عبر الزمن. وهو ما نطلق عليه بالاجتهاد ، والحقان مشروطان - من حيث هما فعل الاجتهاد - بشروط العلم والعقل والحرية أي مشروطان بالأهلية في استنباط واستخلاص قواعد العدل الإلهي من النص المقدس (النقل).

وعند تثبيت هذه القراءة – من حيث هي إطلاق لحرية البحث – ويتم في ضوئها ابتكار ما يمكن أن نسميه"اتفاق الإطار" – بوصفه المرجعية المجتمعة – الذي يحمي من الشذوذ الفكري واللامعيارية السلوكية ويمنع الانفصال عن النص المقدس بنفس الدرجة التي يحمي بها حريات الأفراد والجماعات، وتنمحي فيه أشكال التعصب للرأي، ويحدث ذلك فقط عند خلع ونزع القداسة عن الأفكار البشرية. ويغدو كل من التدين والحداثة من حيث هي منافع حضارية، بعد ذلك توأمان ينموان في رحم الدين الثابت، والشبكة الاجتماعية المتغيرة، عبر نشر الوعي بشرط الحوار بين كل ما يبدو مختلفا ومتناقضا. وبذلك فقط نستطيع أن نرى الحدود بين حرية الفكر، وحرية الكفر وفوضى التكفير.

رابعاً: محاولات تجاوز ظاهرة الغلو في التكفير والتعصب السلبي:

كان لابتلاء المجتمعات الإنسانية قديما وحديثا بظاهرة التعصب والتكفير في تجلياتهما السلبية، أن قاد الاجتماعيين والتربويين على مختلف مشاربهم الفكرية والسياسية إلى إنتاج إستراتيجيات التجاوز يمكن اختزالها في إستراتيجيتين وفق معيار المدى الزمني:

١: إستراتيجيات وقائية طويلة المدى.

٢: إستراتيجيات علاجية آنية.

١: ألإستراتيجيات الوقائية (بيداغوجيات وقائية):

أكدت الدراسات الأمبيريقية المختلفة والمتباينة في نتائجها حول تكون ظاهرة التعصب أو الغلو في التكفير، أن القوالب النمطية الجامدة والمعتقدات الخاطئة التي تكونت عند الأفراد والجماعات، هي صناعة تربوية ابتداء، سواء عند القائلين بوراثتها أو تعلمها واكتسابها من البيئة، وأنها نمت كتمثلات ذهنية ناتجة عن عمليات تثقيف العقل وتلوينه أيديولوجيا، واستحالت إلى نظم إدراكية مغلقة صارمة، وهو ما يدل على تورط العامل التربوي كسبب وشرط بيئي تعلمي مباشر في تكون الاتجاهات التعصبية والغلو في التكفير ونموهما، لاسيما في البيئات المنمطة ثقافيا، وهو ما قاد التربويين إلى تبني إستراتيجيات وقائية تربوية عدة يمكن اختزالها وفق معيار مستوى التدخل إلى:

١ – ١ التدخل التربوي الحداثي ونتائجه:

أ – سكلجة التربية:

تأسس التدخل التربوي الحداثي – من حيث هو مقاربة سيكولوجية للتربية على الحرية الفردية – لحل مسألة التكفير والتعصب، على ما كيل للتربية التقليدية من انتقادات من حيث هي – كما ينعتها الحداثيون – تربية دوغمائية (تعصبية)تقوم على مبدأ السلطة في التعليم، وهي سلطة متجسدة في المحتوى التعليمي وفي مواقف المدرس، وتتأسس مشروعيتها الإبستمولوجية[1] على فكرة امتلاك الوسيط (المدرس، المجتمع، الراشد، العقل الجمعي) للمعرفة وقدرته على تمريرها إلى التلاميذ مما يفرض على التلميذ الإصغاء إلى المدرس والاحتفاظ بما يقدمه. والطريقة الدوغماتية (التعصبية الصارمة)تقوم على التحليل الشفهي لمسألة ما، دون تدخل التلاميذ وعلى تقديم معارف

(١) الإبستمولوجية ونعني بها هنا المشروعية المعرفية.

جاهزة مبنية على تقسيم منطقي وتصنيف دقيق للأفكار ولغة واضحة وبسيطة. ويقسم العرض أو الطريقة إلى أجزاء ينتهي عرض كل جزء بأسئلة تقييمية ويختتم الدرس بتمرين وتلخيص للأفكار الأساسية وكأنها قواعد نهائية وخلاصة معرفية أبدية. وهي في ذلك تكاد تكون تربية للتفكير الإجتراري القائم على التكرار واحترام النتائج كمعرفة جاهزة صادقة سلفا. فليس الإكراه الأخلاقي أو الديني أو الأيديولوجي أو العلمي الذي دأبت عليه إستراتيجيات التربية التقليدية ويتعرض له الطفل في البيت والتلميذ في المدرسة بمنأى عن إنتاج الاتجاهات التعصبية أو العقلية التعصبية، فتربية الأخلاق والدين والقيم والمعارف، كما لو أنها حقائق مطلقية لا تقبل النقاش، لا معنى له إلا إذا تم في نطاق من بيداغوجيا الحرية من حيث هي اختيار وتفاعل واعي وذكي، للذات مع المحيط، فحتى علم النفس – خلافا للتحليل النفسي – يؤكد أن الإنسان لا يغدو أخلاقيا واجتماعيا إيجابيا إلا بما استبطنه من محكمة نفسية خاصة (الأنا الأعلى) إذ يصبح ذلك لا حقا مظهر من مظاهر التخلي عن الإكراه الخارجي في بناء الحضارة والذات والمعنى، ذلك أن تطلعات المتعصب والجماعة المتعصبة تبدو في كثير من الأحيان مقبولة ومشتركة، إلا أنها تبدو أيضا رغبة ونزوة تتحقق خارج الوقائع (جنون العظمة) ولو أن الكوابح من جنس الأنا الأعلى (هانيال ١٩٩٠:ص ص ٤٠ – ٥٥).

ويراهن علم النفس على تواري ما يسميه بالشخص العتيق من حيث هو شخص متعصب ذهاني[1]، ناتج عن المثلنة والإمتثالية الزائدة للصفوة المختارة (أفكار، أشخاص) وتكريس التربية للعلاقات الندية والتبعية واللاتسامح والصراع والتصادم، لصالح الإنسان الجديد الذي يتميز بالتقرير الذاتي وقبول

(١) الذهانية ويعني به الأمراض النفسية العقلية.

التشارك مع الآخر وإنجاز علاقات التكافؤ والتسامح والمساواة والمعية...الخ وهو رهان لا يخلو هو أيضا من الريبة والتشاؤم، لأن الشخص الجديد المعني قد بدأ في تكوينه منذ التنوير، وما زال في مطلع الألفية الثالثة في طور الإنجاز يصطدم مع غريزة الموت والهدم التي تنتعش مع الاتجاهات التعصبية، وهي الاتجاهات التي يراها "بوبر" قد انتعشت أكثر في فلسفات القرن الثامن عشر الموصوفة بالحداثية والتي انخرطت في إنتاج وهم التاريخانية وتحديد مجرى التاريخ والقول بالفردوس الحتمي. الأمر الذي جعل الاعتقاد بحلول الإنسان الجديد هو أيضا وهم، لأنه لا يظهر إلا بعد أجيال يجري خلالها السيطرة التربوية على ما يسميه المحللون النفسانيون شيطان الغريزة العدوانية الهدامة (هانيال ١٩٩٠:ص ٨٠).

ب – التدخل التربوي الدولي (إطلاق بيداغوجيا السلام):

إن مقولة "يولد السلام في العقول كما تولد الحرب في العقول" التي بعث بها فرويد إلى أينشتاين في رسالة خطية، واتخذتها الأمم المتحدة منطلقا في بنائها لميثاق السلم والأمن العالميين، تؤسس لأهمية التربية في تكوين الاتجاهات التعصبية، والاتجاهات المرنة المتسامحة، في آن واحد، وهو ما أدى إلى إطلاق التربية الدولية تهتم بحقوق الإنسان على مستويات عدة(حقوقي، إعلامي، سياسي، تربوي، اجتماعي) وأدرجت في كثير من المنظومات التربوية كمادة تعليمية تهتم بالحوار بين الأضداد وتكريس قيمة الحرية والاعتراف بالآخر ونبذ التعصب والإقصاء...الخ. ولم تدخر الأمم المتحدة عبر هيئاتها الدولية (اليونسكو خاصة) من نشر القيم الإنسانية المتعلقة بالتعايش السلمي والاحترام المتبادل ونبذ التعصب والكراهية، عن طريق مكافحة الأمية ونشر التعليم وإنتاج التقارب والتماثل العالمي في صيغ العيش وتشجيع التبادل الثقافي والحوار بين الأمم والشعوب.

إلا أن بيداغوجيين آخرين مهتمين بالسلم الدولي والعالمي لا يعتدون بمشاريع الأمم المتحدة واليونسكو في حل الاتجاهات التعصبية بصيغ التشريعات القانونية والمراقبة والمنع وأشكال الوقاية، ويطرحونها كما لو أنها مشكلة نفسية حيوية وذات تجليات هرمية مجتمعية تتطلب التدخل على مستوى تحقيق العدل الدولي والاجتماعي والأسري ابتداء. فأمثال البيداغوجي الألماني"هرمان رورس" الذي يعتقد أن السلام والأمن لا يتحقق بمجرد التشريعات القانونية لمنع نشوب الحروب ولا بإضافة مواد تعليمية في البرامج التربوية تتعلق بنبذ الصراعات وأشكال التعصب، ومراقبة ذلك، بل يراها أعمق من ذلك بكثير تتعلق بتكوين قدرات واستعدادات واتجاهات سلمية في النفس الإنسانية في ضوء مفاهيم العدل.

ففي ظل فلسفة بيداغوجيا السلام،وبعدها السيكولوجي، يفسر السلوك العدواني كما لو أنه دافع حيوي ينمو باتجاه ما يسمى بـ " التحامل" من حيث هو الأفكار المسبقة تتسم به الشخصية السلطوية، ويولد سلوك التطرف والتعصب في الرأي، المؤديان في النهاية إلى السلوك العدواني. فمن حيث هو دافع حيوي لا يمكن تخطيه، فإنه قابل للتعديل والتوجيه كباقي الدوافع الأولية، وبالتالي يمكن وضعه كموضوع حيوي للتربية، من حيث هي الآلية الأولى لتوجيه العدوان نحو أهداف إنسانية "وأبرز ما يطلقه "هرمان رورس"كفعل إجرائي لحل معضلة الشخصية التعصبية "هو ما أسماه بـ "أنسنة الإمكانيات العدوانية" بما يطلق عليه بـ "ممارسة التعقل"من حيث هو ممارسة للحوار مع الآخر، وفق القواعد والضوابط العقلية، بحيث يؤدي إلى التفهم المتبادل وإعادة تموضع كل من الذات والآخر في تقبل التفكير النقدي الذاتي ابتداء وممارسته، وهو بذلك لا يستهدف من الحوار إقناع الآخر وإدماجه، بقدر ما يستهدف تأسيس التفاهم والتغير في الأفكار المتصلبة من جذورها

النفسية. بتعليم الطفل منذ الصغر مواجهة المواقف بعقلانية خالية من التحامل وكل صيغ العنف، والمشاركة في حل الخلافات والصراعات بتحكيم العقل، ولا يقتصر الأمر عنده على الاعتماد على فكرة "التنفيس"المشاعة لدى التحليليين النفسانيين كآلية لمنع العدوان أو التخفيف من حدته، كما أنه لا يعتد بمقولة أن الحرب تولد في العقول كما هي في عقيدة اليونسكو بقدر ما هي مبثوثة في دوافع الإنسان الفطرية.(العصار: ٧٢ – ٧٤).

وتقوم فلسفة بيداغوجيا السلام في نطاقها الدولي على ممارسة الحرية والعدالة الاجتماعية الدولية وإقرار التربية القائمة على إشباع الحاجات النفسية والجسدية، والابتعاد عن الحرمان وصيغ الاستبعاد والتهميش وكل ما يؤدي إلى الإحساس بالظلم، وهو ما يتطلب مشروع تربوي يقوم على إدماج مفاهيم السلام العالمي في كل النشاطات التربوية والعلمية، المشتقة من مواقف الحياة الاجتماعية المعاشة، لاسيما المواقف المعبرة عن العدل والإحسان والتعاون والإنقاذ والرفق وخدمة الآخرين والتخلص من الأنوية[1] الزائدة والمساهمة في الحوار وفض النزاعات وترسيخ آلية التراضي ونبذ التعصب والتحامل، وهو ما يستوجب إطلاق مشروع الدراسات الميدانية على أوسع نطاق لرصد اتجاهات الآباء والمعلمين ومدى انتشار التحامل والأحكام المسبقة عن الآخر وبحوث القدرة على حل المشكلات، حتى يبنى المشروع التربوي الدولي على المعرفة العلمية.

ويبرز المشروع – من أجل إنماء النزعة الإيجابية نحو الآخرين عند الأطفال – أهمية تبادل الخبرات في ثقافة السلم وتعليم اللغات الأجنبية والاستعانة بالأساتذة الأجانب وتعزيز ثقافة التواصل وتدريس التاريخ برؤية نقدية وبفلسفة

(١) الأنوية الزائدة وتعني التمركز حول الذات والشعور بالتضخم في الأنا والذات.

لا غالب ولا مغلوب في المعارف الحربية، كما هو الشأن في التربية الرياضية وروحها المعقلنة. فالسلام لا يبنى بالقوانين بقدر ما يبنى بممارسة العدل والحق وعدم التمييز الجنسي أو العرقي أو الأيديولوجي أو الطبقي أو اللغوي أو الديني، وتربية الروح المنصفة وعدم التحيز على المستوى الدولي والاجتماعي والأسري، فمن شأن ذلك كله أن يعدل باستمرار النزعات والاتجاهات العدوانية ويقلص من مفعول آلياتها كالجشع والطمع والاستغلال والاستحواذ...الخ.

ج – التدخل البيداغوجي المدرسي في تربية الفكر والتفكير:

إن تصنيف كل من التعصب السلبي والغلو في التكفير ضمن الظواهر العقلية المعرفية وتحديدا"الفكرية والتفكيرية" حيث يتمظهران كخاصيتين سلبيتين للفكر ببعديه العقلي والوجداني أكثر، فإنهما يكونان موضوعا للتربية الفكرية قبل غيرها، حيث تحضر التربية الفكرية لا كفرض كفاية، بل كشرط ضروري لا يغني عن حضور الشروط الأخرى التربوية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.

وبعيدا عن التشظي والانقسام البيداغوجي والتحيز أو التعصب إلى هذه النظرية البيداغوجية أو تلك، فإن تربية التفكير هي عقيدة التربية الحديثة بكل تباياتها، وأنها تميز المدارس إلى مدارس تقليدية تعتمد على ما يسمى بتربية التفكير التوجيهي المستند على معيار النتيجة، وهو تفكير متهم أو يوصف بأنه " التفكير اللاخلاقي"من حيث هو مقترن بتربية التعصب للنتيجة التي يحددها ويفرضها المعلم والمجتمع مسبقا، ولا يعير أي اهتمام للوسائل والأدوات، ومن ثم فهو من جنس " الغاية تبرر الوسيلة ". والمدارس التقدمية الحديثة والتي تعتمد على تربية التفكير المنطقي المستند على معيار الأسباب المنهجية، والمحكات الرياضية للوصول إلى المعرفة، أي تربية "امتثال الطرق"

السليمة التي تؤدي إلى نتائج خالية من الأخطاء (المعرفة الصحيحة المقبولة) بدلا من تربية "امتثال المعرفة". ويعتقد أن تربية هذا التفكير من شأنه أن يقود الذات بالضرورة المنطقية إلى تبصر للحقيقة وفق وتيرة التعلم الذاتي والإشباع الفوري، ويحمي من العقم الأيديولوجي، وتستند هذه المقاربات البيداغوجية لفعل التفكير المنطقي على مقولات أو مبادئ العقل في مواجهته للظواهر والأحداث من حيث هي مشكلات متجددة، أي أنها تربية تقدم العقل على النقل والمبادئ العقلية على المضامين المعرفية. (ليبمان ١٩٩٨ : ص ٩٢).

غير أن بيداغوجيين آخرين يرون في التفكير التوجيهي إن هو إلا تعلم بدون تفكير، وأن تعلم التفكير الرياضي هو الآخر ليس إلا تعلم للحصافة العقلية من حيث هي سلامة التفكير، لا يمنع الوقوع مرة أخرى في التعصب الذي تفرضه العقلانية والمنطقية، إن على مستوى التعصب للنتيجة وإن على مستوى التعصب لصرامة الوسائل (المنهج) حيث يتربى الجيل في مدارس التفكير الرياضي على صرامة المبادئ العقلية وحشد البراهين المنطقية لتبرير التعصب للآراء في المواقف الإنسانية، التي هي في أصلها مواقف متغيرة ومتجددة ومرنة، فكثير من القضايا الأخلاقية والأيديولوجية لا تحسم عقليا وبمبادئ المنطق، كما أن اللجوء إلى المزاوجة بين تربية التفكير التوجيهي والتفكير الرياضي ليس إلا تربية للتكيف مع المواقف حتى ولو كانت غير ملائمة. وهو ما دعا إلى ابتكار ما يسمى بتفكير التقصي والمحاكمة العقلية والمنطقية على حد سواء. من حيث هما تربية لعمليات التقدير والمقارنة والتعيين للتماثلات والاختلافات بين المواضيع والأفكار والأشياء والأشخاص والأحداث...الخ ويتضمنان تقويم نقدي وتقويم إبداعي من حيث هما متلازمان يفرضان على المرء مراجعة أحكامه ولو كانت تبدو له صحيحة وينزع دائما للابتكار والتجديد.(ليبمان ١٩٩٨ : ص ص ٩٤ – ٩٢). ولما كان التحيز

للرأي أو للأيديولوجية وللعقيدة من حيث هي أنماط نموذجية من التفكير المنمط ناشئ أساسا من التربية وسبل التفكير المنطقي والتوجيهي فإن الأمر في نظر "ليبمان "يتطلب – لتجاوز التحيزات – تكوين مجتمع التقصي الذي هو مجتمع المحاكمة العقلية الجمعية تنصف الآخر المختلف. (ليبمان ١٩٩٨ :ص ص ٣٨٢ – ٣٨٤).

وقد سعت كل الدول الغربية منذ ما يسمونه بـ " التنوير" إلى تبني هذه الإجراءات التربوية والبيداغوجية الوقائية[١]، كما تسعى الدول العربية منذ مدة هي الأخرى للإصلاح، والانفتاح على هذه التجربة الغربية بكل تناقضاتها، وإعادة النظر في نمط المنظومات التربوية وتحرير البرامج التعليمية من كل ما من شأنه أن يؤدي إلى التعصب الديني، بل إدراج مادة الأمن الفكري ومادة حقوق الإنسان والتربية المدنية وحوار الحضارات...الخ في بعض البرامج التربوية وفي كل الفروع والتخصصات في الجامعات.

٢: الإستراتيجيات العلاجية:

العلاج بطبيعته تدخل آني وسريع وفق التشخيص الموضعي للمشكلة ومن ثمة فهي مواجهة للحاضر لردود أفعال آنية وقد توضع في إستراتيجيات إستعجالية محلية قطرية تتعلق بملابسات الظاهرة ومحيطها الاجتماعي والسياسي على الخصوص. وتتمركز كلها تقريبا في العالم العربي حول:

الحل الأمني، والمراجعات الفكرية. والتوعية الشعبية المؤسسية.

فأما الحل الأمني فيتجلى كما هو واضح في السياسات العربية في

(١) البيداغوجيا :Pedagogie نعني بها في هذا المقام طريقة للتدريس. وهو مصطلح في أصله إغريقي مركب من لفظين (بيدا) ويعني به الطفل (غوجي) ويعني به القائد (قيادة الطفل إلى.. ويطلق كمصطلح تربوي للدلالة على مجموعة الممارسات أو النشاطات التربوية التي يطبقها المعلم على التلميذ بغرض تعليمه وتربيته وتحويله من حالته الطبيعية الى الحالة الثقافية.

الإجراءات السريعة والتي هي من آجل الأعمال، لمنع كل مظاهر التعصب والتكفير (السلبيين) واجتثاثها كأفعال وصيغ نهائية للسلوك، ويترك البحث في الأسباب ومنعها لإستراتيجيات أخرى غير أمنية كاستراتيجيات ما يسمى بـ "الأمن الفكري" المعتمدة على أساليب التربية والتوعية الإعلامية وهي إستراتيجيات في آجل الأعمال، وعادة ما كانت هذه الإجراءات الأمنية العاجلة، هي استعمال القوة القانونية والتشريعية وحضر الأفكار التعصبية ومحاصرة ما نشأ من الجماعات التكفيرية ومنعها من النشاط الدعوي والسياسي والثقافي والتربوي وتحذير الكل من الاقتراب منها وبمعتنقيها، والعمل على تجنيد كل الإمكانات البشرية والقوة المادية والتنسيق الوطني والقومي والدولي لمحاصرتها والقضاء عليها لاسيما في طورها العنيف.

وأما المراجعات الفكرية، ويقصد بها تنشيط آليات الاتصال بالجماعات التعصبية والتكفيرية لاسيما بالمراجع الفكرية المعتمدة لديها، ومحاولة ثنيها والتخلي عن أفكارها التعصبية وإعادة تشكيل وصياغة تفكيرها ونسقها المعرفي القبلي في نطاق الوسطية، ويستعمل في ذلك المحاضرات والحوارات والمناظرات والملتقيات والجدل بالتي هي أحسن داخل السجون وغيرها واستعمال الحجاج والبرهان والدليل ومقارعة الرأي بالرأي. والتكفل بكل من تراجع وراجع أفكاره المتطرفة بإدماجه في المجتمع والفكر الوسطي بصيغ شتى كـ "المصالحة الوطنية، والوئام...الخ).

وأما التوعية الشعبية والمؤسسية، فتتجلى في ما يجري من مؤتمرات ومحاضرات عامة في النوادي الشعبية والجامعات والمعاهد العليا لشرح الظاهرة والتنبيه إلى خطورتها على المجتمع والفرد والوطن، وما يجري من إنتاج برامج إذاعية وتلفزيونية وأفلام تعالج الظاهرة وتساهم في تشكيل الرأي العام ضد التعصب ونبذ التكفير وهجرة مقترفيهما وعزلهما.وحث الأولياء على الاهتمام

بالظاهرة وإطلاق مبادراتهم وتشجيعهم على الاتصال بأبنائهم المتورطين في التكفير ومحاورتهم، وإعادتهم إلى جادة الصواب ويدخل كل ذلك ضمن إستراتيجية الأمن الفكري للأجيال في الأسر والمدارس والجامعات ودور الثقافة...الخ. وهي مقاربات إعلامية أكثر منها تربوية نسعى إلى تشكيل الرأي العام بما أتيح من وسائل الإعلام الجماهيرية (التلفزيون والراديو والصحافة المكتوبة) والإلكترونية المرقمنة (الأنترنت على الخصوص).

٢ – ١ العلاج من منظور الهيئات الشرعية:

يبدو أن العلاج والحلول لمشكلة التعصب السلبي والغلو في التكفير كما هي موصوفة في كتب ومؤلفات الاتجاه الوسطي والاعتدال في الإسلام مستند على تشخيص المشكلة كما لو أنها انحراف فردي فكري أساسا، ناتج عن نقص في العلم الشرعي وسوء فهم الدين والتدين الصحيح، وهي مقاربة جاهزة في مفاهيمها تستند إلى عبر التاريخ الإسلامي ذاته، حيث وضعت المشكلة كما لو أنها أمانة ومسؤولية العلماء الراسخون في العلم من ذوي الحكمة، لمعالجتها بالنصح وبالبصيرة والحكمة ومقارعة الحجة بالحجة ودفع الشبهة وتوضيح كل ما أشكل على الشباب المتهم بالعصب، ونشر العلم الصحيح الموروث عن الرسول كما هو في السنة وفقه السلف الصالح وثابت عند علماء الأمة الموثوق في علمهم، كواجب عليهم إبراء للذمة، إعذارا وإنذارا، بالنصح والقول السديد: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً❖ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.. ﴾ [(١)]، فالعلماء هو ورثة الأنبياء، وهم وحدهم من يدركون الوسطية من حيث هي النصيحة والتناصح بالحكمة بعيدا عن التنابز والتضاد والتنافر وهو ما يوجب طاعتهم في مسائل العلم بقوله

(١) سورة الأحزاب: الآيات:٧٠–٧١.

تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ [1].

وقد تصدت لها الهيئات الشرعية (العلماء) ببيان وتوضيح حكم المتعصب السلبي والغلو في التكفير شرعا، حيث أصدر العلماء فتاوى عديدة من هيئات وأشخاص تبين عدم جواز التعصب السلبي، وأنه منهي عنه في القرآن والسنة النبوية وفي فقه السلف الصالح، وأن المتعصب في حكم العاصي، يتطلب التعزير والتأديب عند كل سلوك مكابر ومعاند.وإذا صدر منه عنف ومارسه بحيث يلحق الضرر بالآخر المختلف عنه كنتيجة لتعصبه السلبي، وتكفيره غير المؤسس، بعد إقامة الحجة والبرهان والدليل، لزم إقامة شرع الله في كل متعصب لرأيه. حيث يصبح في حكم الباغي المعتدي قياسا على ما حدث في التاريخ الإسلامي وظهور الفرق التكفيرية وما انجر عنها من عنف، وعليه كانت الجماعات التعصبية المشهورة بـ "التكفيرية" في فتاوى أغلب علماء الإسلام المعاصرين هم من العصاة والبغاة المعتدين. ونصحوا بـ:

وضعهم في نطاق الحكم الشرعي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومواجهتهم ابتداء باللين والرفق والتوجيه وإعادة التربية وحسن البيان، ثم يجوز استعمال القوة القانونية في مواجهة أذى المتعصبين وغلاة التكفيريين إذا هددوا – كجماعة أو افرادا – أمن الأمة والدولة. وهو ما يصنف ضمن إستراتيجيات الحل الأمني والقانوني.

وبناء على الموقف الشرعي الوسطي: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [2] وتوصيفات الباحثين الأمبيريقيين الإسلاميين (أي الذين اعتمدوا على الدراسات والمعطيات الحسية الميدانية) وما أثبتوه من أن المشكلة ذات أبعاد شخصية

(١) سورة التغابن: من الآية: ١٦.

(٢) سورة البقرة.الآية: ١٤٣.

واجتماعية، وأخلاقية كدراسة "عبيد "(عبيد زيدان ١٩٩٧: ١٢٩ – ١٧٧) حشدت الجهود للتصدي للمشكلة على المستوى الأسرة بترقية أدائها التربوي، وتصفية الشارع من مظاهر الفساد الأخلاقي، والحث على إشاعة الحوار والجدال بالتي هي أحسن بين كيانات ومؤسسات المجتمع والتكامل بين المؤسسات التربية والتنشئة الاجتماعية والمسجد ووسائل الإعلام وكذا اعتدال الخطاب السياسي وتحقيق التكافل الاجتماعي، وتيسير الدين والتفقه فيه برفق والارتباط بالعلماء كمرجعيات، وإعادة النظر في صرامة البرامج التربوية والطرق البيداغوجية بما يعزز التفكير الذاتي وتصحيح منهج التلقي في المساجد والخطب المنبرية، ونشر العلم الشرعي بما هو وسطية معتدلة وعادلة في الدين والتدين وجعله خيار ليس منطقيا فحسب بل جذاب أيضا، ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[1] وبالتزامن مع ذلك، يجري نبذ كل تطرف والتصدي له ومحاربته بالحجة الشرعية والبيان والردع لكل معتد أثيم.

٢ – ٢ تقويم إستراتيجيات العلاج:

إن ما أظهرته نتائج إستراتيجيات العلاج في معظم من ابتلي من الدول العربية، هي نتائج محدودة إلى حد الآن على الأقل، على الرغم من تجنيد كل الوسائل المذكورة ووضع الإستراتيجيات المدروسة، حيث لم يتوارى التكفير والتعصب عن المشهد الاجتماعي والسياسي والثقافي، وما تحقق من نتائج لم يتعد حدود التخفيف من الحدة والشدة، إن لم نقل أن هذا التخفيف ليس إلا وهميا، فالتعصب ما زال يتولد في العقول ويتغذى من اللاعدل الاجتماعي وانتشار اللامعيارية، والجماعات المسماة بالتكفيرية ما زالت تنشط وما فتئت

(١) سورة النحل. الآية: ١٢٥.

تتوالد وتتكاثر تحت مسميات مختلفة، وهو ما يدل على أن المشكلة أكبر من هذه الحلول الأمنية والإجراءات التوعوية والمراجعات، وهي تواجهنا على المستوى الأعمق والأشمل وفي نطاق اجتماعي وحضاري، فهي ليست بالتأكيد كما يقال دخيلة على مجتمعاتنا، بل هي في عمق ثقافتنا الخاطئة عن الدين والتدين والتحديث والحداثة ومقاربة مشكلاتنا في نطاقها الثنائي والقطبية الحادة، مما يتطلب حلولا في مستوى هذا التعقيد وهو مستوى لا يمكن تجاوزه بالفتوى، حيث أن الفتوى الآن معولمة أكثر، كما لا يمكن احتكاره أو الفتوى فيه من قبل النخبة أو السلطة، إلا ضمن إطلاق حوار شامل من شأنه أن يؤدي إلى مراجعات فكرية شاملة وبناء أطر مرجعية وسطية في الدين والتدين والسياسة والفكر.

خامساً: خلاصة واستنتاج بعض الحلول الممكنة.

نستنتج من المقاربات العديدة لظاهرتي التكفير والتعصب كما عرضناهما أنهما ظاهرتان متلازمتان وملازمتان للسلوك الفردي والاجتماعي، فلا يخلو عصر أو مصر أو جماعة أو فرد منهما، ما دام الإنسان موجود في علاقات (تقاطع، احتواء، إتحاد، تبعية، ندية، معية، صراع، تنافس تضاد استبعاد، استعباد، تعاون إحسان...الخ فبمجرد وجود الإنسان في تمايز ووضعيات تقسمه إلى (أنا وآخر) فإنه بالضرورة سوف تظهر إنفصالات واتصالات وتحيزات (بسيطة أو شديدة، منطقية أو غير منطقية) للداخل (الأنا) بوصفه معتقد، أو رأي، أو اتجاه، أو دين...الخ على حساب الخارج (الآخر) بوصفه كذلك، وهو ما يقود إلى التعصب أو التكفير بوصفهما جحود للآخر ونكران وانفصال وتباعد، وبروز للذات وتمركز واتحاد. وسواء احتكمنا إلى منظومة القيم والأخلاق والمعايير والدين، أم إلى التحليلات

السوسيولوجية والسيكولوجية[1] والفلسفية، فإنهما مفهومان محملان بمعان إيجابية وسلبية، ومضامين، نفعية وضارة، فالمتعصب للحق والحقيقة وتكفير الكافر المستند إلى الدليل – في كل المقاربات وبكل المعايير – لن يكونا إلا حكمان إيجابيان مقبولان في نطاق الشرط الاجتماعي والوضع الثقافي (النسبية)، في حين أن التعصب الذي يفتقد موضوع الحق والحقيقة، إن في الدين وإن في المعرفة البشرية وفي كل المقاربات هو تعصب سلبي، والتكفير الذي لا يكون بدليل هو غلو في التكفير، غير مقبول في كل الأديان والأعراف، وواضح أنه في طورهما السلبي يكونان متعالقان ومترابطان ارتباطا وجوديا، (كمشكلة مركبة)إذ أن الغلو في التكفير يتموقع كما لو أنه متغير تابع مشروط بالتعصب السلبي وهو ما يجعلهما سلوكان منحرفان وسلبيان يتطلبان التدخل على كل المستويات، وفق قاعدة تحرير الرأي والاتجاه (التدين والحداثة) من القدسية والقطبية، والانضباط في وضعنا الإسلامي مع النص المقدس (القرآن والسنة) وقد اهتدت التجارب إلى وضع إستراتيجيات تربوية بعيدة المدى من حيث الأثر (إعادة صياغة المنظومات التربوية والممارسات البيداغوجية وفق مبدأ الحرية والتفكير الناقد والإبداعي لإنتاج ما يسمى بـ (المجتمع التقصي) لمقاومة التحيز.(ليبمان ١٩٩٨: ص ٣٨٢).

وبجانب إستراتيجيات الوقاية ظهرت استراتيجيات علاجية آنية في عالمنا العربي خاصة، وهي إستراتيجيات خاضعة للنسبية الزمانية والمكانية وتقدير الظروف وبالتالي فهي محلية متباينة من وضع إلى آخر ويمكن رصدها في:

(١) نعني بالسوسيولوجية تلك الدراسات المعتمدة على التحليل الإجتماعي، والسيكولوجيا نعني بها الدراسات المعتمدة على تحليلات علم النفس. والسيكولوجية: لفظ لاتيني مركب من مقطعين (psycho) ويترجم إلى العربية بـ " النفس". والمقطع الثاني (Logie) ويترجم إلى (علم) واللفظ المركب يعني الدراسة العلمية للظواهر النفسية أو "علم النفس ".

إستراتيجيات أمنية وتظهر في حالات أو وضعيات التعصب للعنف أي في تأزم العلاقة بين الجماعات المتعصبة التكفيرية وبين أنظمة الحكم (الخروج عن الحاكم) فيعمد كل منهم إلى إلغاء الآخر بالقوة، وقد ثبت ضعف هذه الإستراتيجية فضلا عن لا إنسانيتها ولا أخلاقيتها حتى ولو أدى إلى انتصار أحدهما عن الآخر والقضاء عليه.

إستراتيجية المراجعات الفكرية، وهي إستراتيجيات بدت إلى حد الآن رغم وصفها بالحوارية والمناقشة العادلة وكأنها خطية في اتجاه واحد، محدودة النتائج، بحيث يتم الضغط الأدبي والمعرفي على المتعصب الديني لفكرته وفهمه للدين بغرض تغيير قناعاته من حيث هو الخاطئ والمنحرف.

وإذا عدنا إلى الذخيرة الإسلامية في معالجة مسألة الاتجاهات التعصبية تربويا، وبنظرة كلية نسقية تزيل ما يبدو من تعارض بين الآيات وتحمي من انتقائية واختزالية لنصوص دون أخرى، فإننا نجدها أصدق أنباء من كل ما سبق في معالجة مسألة التعصب وما ينشأ عنها من تكفير ورفض وتسفيه للآراء الأخرى، حيث تأسست على مبادئ ونصوص مقدسة (إنما المؤمنون إخوة) (كلكم من آدم وآدم من تراب) الإنسانية قسمان (أخ في الدين وأخ في الإنسانية) إذ تنبني كل العلاقات الإنسانية وتقوم على (اسم الله اللطيف) وعلى علاقات التراحم والمرحمة وصلة الرحم المشتقة من (الرحمن الرحيم) وعلى (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويديه).

وفي مشكلة التعصب وتكفير الآخر، فإذا أسسنا إستراتيجية العلاج على قاعدة مضمون الحديث الشريف "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما" فإننا بالضرورة سنتعامل مع المشكلة بداية في نطاق بعث النفس اللوامة الحريصة على التوبة المستمرة، من حيث هي نفس تراجع ـ باستمرار غير متناهي ـ ما استقرت عليه من فكر أو حلول أو أوضاع، كل حين، من أجل تحصيل وتمثل النموذج

المعياري (النفس المطمئنة) الذي لن يكون إلا نموذج الرسول ﷺ، إن في مسائل الدين كعقيدة وعبادة، وإن في مسائل التدين كممارسة للشعائر وعلاقات ومشاريع مجتمعية. وهو ما نعده ممارسة لحوار التاريخ، وحوار المواضيع، وحوار الناس، وحوار الأفكار من أجل التوافق والملاءمة لا من أجل الاحتواء والاستحواذ والإقصاء...الخ

ومن ثمة يتسنى لنا مقاربة الوضع بعدالة أكثر ونضع المشكلة كما لو أنها مشكلة في نطاقها الأخوي غير العدائي، تمس جميع الأطراف، حيث ننصر أخانا المجمع على ظلمه، بمنع ظلمه وتقويمه، ولا يكون ذلك نصرا له، إلا إذا كان ذلك في نطاق النصح والرحمة والأخذ بيده، لأن القضاء على الظلم الأخوي – إن صح التعبير – بالعنف والقوة لا يكون نصرة بقدر ما هو عداء يعمق الجروح، (أشداء على الكفار رحماء بينهم) وهو ما يتطلب إشاعة الألفة والتناصح والعدالة والإحسان والتسامح من أجل منع الظلم، ونضع المشكلة بعدئذ في نطاق الشبكة الاجتماعية والعلاقات البينية، حيث نتحرر بداية من المراجعات الخطية التي تبدوا هي الأخرى انحيازا وتعصبا، ونؤسس لمراجعات دائرية كلية فنراجع ذواتنا وأنظمتنا وظروفنا الاجتماعية ونتخلص من الأطر المذهبية الصارمة التي تؤول بنا إلى التقليد المنهي عنه وتحجب عنا الاجتهاد، ونعمل من أجل تأسيس المرجعية الفكرية العليا القرآنية في نطاق النص المقدس (القرآن والسنة) من حيث هما من يجعل العقل بمنأى عن المطلقية ويحفظه من التعصب بما يدفعانه ويهديانه إلى التبصر والفهم والتفسير في الكتاب المسطور والكتاب المنظور.

وتلك هي المراجعة الشجاعة التي تضمن تنشيط أنفسنا اللوامة وتحفزها كنفس ناقدة، وتنعش النفس المطمئنة من حيث هي نفس واثقة في دينها وتدينها. ولا يتأتى ذلك إلا بمحيط مفعم بثقافة التواد والتراحم والتكافل

والتواصل وانتظام العلاقات بذواتنا وبالآخرين وبمحيطنا ، بتكثيف الاتصال والتواصل وتأمين حياة الشراكة الاقتصادية والشورى البينية الملزمة والتذاوت الفكري بين أفراد الأمة ، وهو ما ينتج بالضرورة ويصوغ بيئة ثقافية يمكن أن تجمعنا وتحمينا من كل تطرف ديني أو لغوي أو سياسي أو عرقي.بتأسيس نظام اجتماعي يقوم على تحفيز النفس اللوامة وإحراز النفس المطمئنة ، ومنع النفس الأمارة بالسوء في مشروع ثقافي واجتماعي واعد..

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الحديث النبوي الشريف
- علي بن هادية ، بلحسن البليش. الجيلالي بن الحاج بن يحيى. القاموس الجديد للطلاب (معجم عربي مدرسي الفبائي) ط٧ / ١٩٩١. المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
- لطفي الشربيني. موسوعة شرح المصطلحات النفسية (عربي ـ عربي أنجليزي). دار النهضة العربية.بيروت. لبنان.
- آرثر أس. ريبر / إيملي ريبر. المعجم النفسي الطبي (أنجليزي ـ عربي). ت. عبد العلي الجسماني، عمار الجسماني.ط٢٠٠٨/١. الدار العربية للعلوم ناشرون. مكتبات تهاهة. جدة. السعودية.
- فريدريك معتوق. معجم العلوم الاجتماعية. أكاديميا.
- جماعة من الباحثين. المنجد في اللغة والإعلام. ط ٢٦ / ١٩٦٨ / دار المشرق. بيروت.
- أحمد محمد بوقرين. التكفير. مفهومه أخطاره، ضوابطه. (www.dorar.net).
- أبو حسام الدين الطفراوي. الغلو في التكفير. المظاهر. الأسباب. العلاج. (www.dorar.net).
- عمر أسيف. التكفير أخطاؤه وضوابطه. (بحث التخرج). إعداد. أبو عبد الله الخطيب. الكلية الأوربية للدراسات الإسلامية. فرنسا ١٤٢٤ هـ. ٢٠٠٣ م.
- معتز سيد عبد الله. الاتجاهات التعصبية. عالم المعرفة. ع. ١٣٧ /١٩٨٩. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.
- أندرية هانيال وآخرون. سيكولوجية التعصب. ت. خليل أحمد خليل.ط١. ١٩٩٠. دار الساقي بيروت. لبنان.
- مصطفى كويلو. التدين والصحة النفسية. ت. أجير أشيوق. مجلة حراء. ع. ٤. ٢٠٠٩. www .hiramagazine.com

- محمد عبد الفتاح المهدي. سيكولوجية الدين والتدين. ط١. ٢٠٠٢. سلسلة الدراسات التربوية والنفسية (٥). الناشر. البيطاش سنتر للتوزيع والنشر.
- عبد اللطيف محمد خليفة. علاقة التعصب الديني والمذهبي بالشخصية أحادية العقلية لدى طلاب الجامعة. حوليات مركز البحوث والدراسات النفسية.دورية علمية محكمة. الحولية الثانية الرسالة الأولى. يناير ٢٠٠٦. كلية الآداب جامعة القاهرة.
- سفر بن عبد الرحمن الحوالي. من موقع الشيخ من شرح العقيدة الطحاوية. (http://www.alhawali.com/index).
- توشيهيكو إيزوتسو. الله والإنسان في القرآن. علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم. ت. هلام محمد الجهاد. ط١/ ٢٠٠٧. المنظمة العربية للترجمة. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت. لبنان.
- سعيد بن علي بن وهف القطاني. قضية التكفير بين أهل السنة وفرق الظلال في ضوء الكتاب والسنة. موقع دار الإسلام. www.islamhouse.com.
- محمد بن عبد الله بن علي الوهبي. نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف. www.dorar.net).
- متقد بن محمود السقار. التكفير. ضوابطه (الأنترنت)
- يوسف القرضاوي. ظاهرة الغلو في التكفير. دار البعث. قسنطينة. الجزائر.
- عبد الله قادري الأهدل. التكفير والنفاق ومذاهب العلماء فيهما. (الأنترنت)
- عبد الله بن محمد القرني. ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة. (www.dorar.net).
- أبو حسام الدين الطرفاوي. الغلو في التكفير.المظاهر. الأسباب. العلاج (الأنترنت).
- عادل عبد الجبار. الإرهاب في ميزان الشريعة (الأنترنت)
- أبو بكر عبيد زيدان عبيد. ظاهرة التطرف الديني من وجهة نظر المسئولين وطلاب المعاهد الثانوية الأزهرية (أسبابها نتائجها طرق الوقاية منها). مجلة

التربية. ع/٦٨. ١٩٩٧ م، ١٤١٨ هـ. كلية التربية. جامعة القاهرة

- ناصر عبد الكريم العقل. حديث حول الأحداث. ظاهرة الغلو في التكفير. الأصول الأسباب. العلاج. دار كنوز. إشبيليا للتوزيع والنشر (ب. ط).
- عبد السلام بنعبد العالي. ميتولوجيا الواقع. ط١/١٩٩٩. دار توبقال للنشر. الدار البيضاء. المغرب.
- يورغين هابرماس. مستقبل الطبيعة الإنسانية.نحو نسالة ليبرالية. ت. جورج كثورة. ط١/ ٢٠٠٦. المكتبة الشرقية (ش.م.ل) بيبرت. لبنان.
- خير الله عصار. كيف نحقق السلام في عالمنا المعاصر عن طريق التربية (٧٠ ـ ٨١).
- ماثيو ليبمان. المدرسة وتربية الفكر. ت. ابراهيم يحيى الشهباني. ط/١٩٩٨. منشورات وزارة الثقافة. سوريا.
- بن كثير. كتاب البداية والنهاية. (المكتبة الشاملة الإلكترونية)